الكتاب الرابع عشر

الفصل الأول

1- بقـي لنـا أن نتحـدّث عـن الإيـونيين، والكـاريين، والسـاحل الواقـع علـى ذلـك الجانب من طوروس الذي يشغله الليكيون، والبامفليون، والكيليكيون. وعلى هذا النحو يمكن أن ننتهي من وصف كلّ شبه الجزيرة التي يعدّ برزخها، كما كنت قد قلت من قبل(1)، معبراً من بحر البونتس إلى بحر إيسّ.

2- تشكّل الطريق البحرية حول إيونيا على طول السواحل، ما يقارب 3430 مرحلة بسب الخلجان، وكذلك لأنّ هذه البلاد تشكل الامتداد الأكبر لشبه الجزيرة؛ أمّا المسافة على خطّ مباشر، فليست كبيرة. إذ يبلغ طول الطريق المباشرة من إفسس حتّى سميرنا مثلاً، 320 مرحلة، لأنّ المسافة حتّى الميتروبوليا 120 مرحلة، والباقي حتّى سميرنا، بينما يبلغ امتداد الطريق البحرية على طول السواحل بين هاتين المدينتين أقلّ بقليل من 2200 مرحلة. وعلى هذا النحو فإنّ نهاية الساحل الإيوني الذي يبدأ عند بوسيدوس الميلتوسية والحدود الكارية، تقع عند ثوكيا وعلى جيرم.

3- ويزعم ثيريكيدس أن الكاريين كانوا يملكون من قبل على هذا الساحل ميلتوس، وميونت، والمنطقة المحيطة بميكال، أمّا الشطر التالي من الساحل حتّى ثوكيا، وكيوس وساموس حيث كان يحكم أناكيوس، فقد شغله الليليغيس. وبحسب قوله إن هاتين القبيلتين تراجعتا تحت ضغط الإيونيين إلى الأجزاء الأخرى من كاريا. ويواصل ثيريكيدس روايته فيقول، إنّ أندروكلس الابن الشرعي للملك الأثيني كودرس هو الذي قاد النزوح الإيوني الذي وقع بعد النزوح الإيولي؛ وهو الذي أسّس إفسس. ولهذا كانت إفسس عاصمة المملكة الإيونية، كما يقولون؛ ولا يزال أحفاد هذه السلالة يدعون ملوكاً حتّى الآن. وقد منحوهم امتيازات تشريفية محدّدة: المكان

الأوّل في الألعاب، ارتداء ثياب قرمزية بصفتها تدلّ على الأصل الملكي، حمل الصولجان بدلاً من الحربة الثلاثية، و[التصرف] بالأضحية التي تقدم في يوم عيد ديميترا الإيليفسينية. لقد أسّس نيلييوس البيلوسي ميلتوس. ويرى الميسينيون والبيلوسيون أنفسهم أقارب إلى حدّ ما، وهذا ما دفع الشعراء الحديثين إلى عدّ نسطور ميسينياً؛ فهم يقولون، إنّ كثيراً من البيلوسيين نزحوا مع ميلانثوس والد كودرس ومرافقيه إلى أثينا؛ وهذا يعني أنّ هؤلاء جميعهم عمّروا مع الإيونيين هذه المستعمرة. ويعرضون في بوسيدوس محراباً بناه نيلييوس. أمّا مينونت فقد أسّسها كيدريلوس، الابن غير الشرعي لكودرس؛ وأسّس أندروبومبوس مدينة ليبيدوس، بعد أن استولى على مكان ما يدعى أرتيس؛ وأسّس أندريموس البيلوسي مدينة كولوثون، كما ينقل ميمنيرموس في «نانّو»[2]؛ وأسّس بريينا إيبيتوس بن نيلييوس؛ ثمّ بعد ذلك فيلوتا الذي قاد مستعمرين من طيبة؛ وأسّس أثامانتوس في بادئ الأمر تيوس (ولذلك يدعوها أناكريونت أثامانتيدا)، ثمّ في زمن حركة الاستعمار الإيوني، أعاد تأسيسها ناوكلس الابن غير الشرعي لكودرس، وبعده أبيكوس وداماس الأثينيان، وهيريس البيوتي؛ وأسّس إريثرا، كنوبوس، وهو أيضاً ابن غير شرعي لكودرس؛ وأسّس الأثينيون الذين كان يقودهم فيلوجينوس مدينة ثوكيا؛ وأسّس بارال مدينة كلازومينا؛ وأسّس إيجيرتوس الذي جاء بجماعات مختلطة مدينة كيوس؛ وأخيراً أسّس تيمبريون مدينة ساموس، وتابع تأسيسها بعد ذلك بروكلس.

4- لقد كانت تلك هي المدن الإيونية الاثنتي عشرة؛ وأضيفت إليها مؤخراً مدينة سميرنا التي أدخلها الإفسسيون الاتحاد الإيوني. لأنّ الإفسسيين عاشوا في الأزمنة القديمة مع السميرنيين، عندما كانت إفسس نفسها تدعى سميرنا. وفي مكان ما يعطيها كاللينوس أيضاً هذا الاسم، إذ يدعو الإفسسيين في صلاة مرفوعة إلى زيوس، سميرنيين:

ارحم السميرنيين؛

أو في مكان آخر:

اذكر كيف كان السميرنيون يحرقون لك
الثيران المكتنزة ذبائح، في زمن ما.

(مقطع 2، بيرغك)

لقد كانت سميرنا هي الأمازونيس التي تحكم إفسس؛ ومنها أخذت المدينة وسكّانها اسمهم، مثلما دعي فريق من الإفسسيين بالسيسيربيتيين تيّمناً باسم سيسيربا. زد إلى ذلك أنّ مكاناً ما في إفسس كان يدعى سميرنا، كما يلاحظ هيبوناكس:

كان له ملاذ في سميرنا، المدينة التي في الخلف،

بين تراخيا وليبريه آكتا.

(*مقطع* 44، *بيرغك*)

لأن اسم ليبريه آكتا أطلق على بريون الذي يعلو فوق المدينة المعاصرة ويشكل دعامة لجزء من سورها. وعلى أيّ حال لا تزال الممتلكات الواقعة وراء بريون، حتّى الآن تدعى ممتلكات «أوبيسفوليبريا»[3]، أمّا البلاد السفحية الواقعة حول كوريسّ، فقد كانت تدعى تراخييا[4]. وفي العصر القديم كانت المدينة تتوضّع حول معبد أثينا الذي بات الآن خارج المدينة قرب ما يدعى هيبيليوس. إذن، كانت سميرنا تقع قرب الجمنازيوم المعاصرة، أي وراء المدينة الحالية، ولكن بين تراخييا وليبريه آكتا. وبعد أن انفصل السميرنيون عن الإفسسيين، شنّوا حملة على المكان الذي تقع فيه الآن سميرنا التي استولى عليها الليليغيس. وبعد أن طردوا الليليغيس، أسّسوا سميرنا القديمة، في مكان يبعد قرابة 20 مرحلة عن سميرنا المعاصرة. وفيما بعد أرغمهم ضغط الإيوليين على أن يبحثوا عن ملاذ في كولوثون، ثمّ عادوا مع الكولوثونيين واستولوا على مدينتهم من جديد. وهذا ما يقوله ميمنيرموس في «نانّو»، إذ يذكر سميرنا كمدينة كانت دائماً موضع نزاعات.

وهكذا تركنا بيلوس العالية، حصن نيلييوس،

ووصلت سفننا إلى آسيا، إلى السواحل الودودة.

وهناك في كولوثون المرغوبة، التي تفوّقت بقوّتها الجبّارة،

وجدنا ملاذاً من جديد، ودحرنا غدر كلّ الغدّارين.

وانطلقنا من جديد مندفعين من أمواج استينت السريعة،

وأستولينا بإرادة الآلهة على سميرنا، مدينة إيوليا.

(*مقطع* 9، *بيرغك*)

لقد كانت هذه معطياتنا عن هذا الموضوع. بيد أنه ينبغي أن نعطي مرّة أخرى

وصفاً مفصّلاً لكلّ جزء على حدة، ابتداء من الأماكن الرئيسة التي تأسّست المستوطنات فيها، أي من الأماكن الواقعة قرب ميلتوس وإفسس؛ فهاتان المدينتان هما الأفضل والأكثر شهرة.

5- بعد بوسيدوس، الرأس البحرية الميلتوسية، إذا صعدنا 18 مرحلة في عمق البلاد، يأتي مباشرة موْحى أبوللون الديديمي لدى البرانهيدس[5]. وقد أحرق كسيراكس هذا المكان المقدّس، كما أحرق المعابد الأخرى ما عدا معبد إفسس. أمّا البرانهيدس فقد سلّموا كنوز الإله للملك الفارسي وولّوا الأدبار مع الفرس خوفاً من العقاب الذي كان ينتظرهم جرّاء خيانتهم وتدنيسهم المعبد. وفيما بعد شيّد الميلتوسيون معبداً هو الأكبر بين المعابد كلّها، وبسبب حجمه الضخم هذا بقي من غير سقف؛ فامتداد محيط حرمه المقدّس يتسع لقرية كاملة؛ وفي داخل الحرم المقدّس وخارجه حديقة بديعة؛ وفي المحارم المقدّسة الأخرى مواحي ومعابد. وقد جعلت الأسطورة أحداث قصة برانك، وغرام أبوللون تدور هنا. والمحرم مزدان بأبهى أعمال الفنّ القديم وأعظمها قيمة. والطريق من هنا إلى المدينة برّاً وبحراً، قريبة.

6- وبحسب إيثور أن الكريتيين هم أوّل من أسّس هذا المكان وحصّنه على البحر هناك حيث تقع مدينة ميلتوس الآن. فقد قاد ساربيدون مستوطنين إلى هناك من ميلتوس الكريتية ودعا المدينة باسم المدينة الكريتية؛ وكان الليليغيس هم الذين يملكون هذا المكان من قبل. وفيما بعد حصّن نيلييوس ومرافقوه المدينة المعاصرة بسور. وفي المدينة الآن أربع موانئ، يمكن لواحدة منها أن تستوعب أسطولاً كاملاً. لقد حققّت المدينة كثيراً من المآثر المجيدة، لكنّ أعظمها كثرة المستعمرات التي أسّستها، فالميلتوسيون استعمروا سواحل البونتس الإيفيكسيني والبروبونتيدا كلّها، وأماكن كثيرة أخرى. وعلى أيّ حال فإن أناكسيمين اللامبساكي يزعم أنّ الميلتوسيين سكنوا جزر إيكاروس، وليروس في الهليسبونت، وليمنا في كرسونيس، وأبيدوس وأريسبا وبيوس في آسيا؛ واستوطنوا أرتاكا وكيزيك في جزيرة الكيزيكيين؛ وسكيبسيس في الأجزاء الداخلية من طروادا. وعلى أيّ حال سأتحدّث عن المدن الأخرى التي أغفلها أناكسمين، عندما أشرع في عرض وصفي التفصيلي. ويدعو الميلتوسيون والديلوسيون أبوللون Úlios، وكأنه إله الصحّة والمداواة، فالفعل ūlein يعني «يتمتّع بالصحّة»، ومن هنا جاءت كلمة ūlē[6]، والتحية «انعم بالصحّة (ūlē)، ابتهج». فأبوللون إله مداو، ومثله مثل أرطميس أخذ اسمه من كونه يجعل

النـاس أصحّاء وسـليمين[7]. ويتحـد هيليـوس وسـيلينا اتحـاداً وثيقـاً بهـذا المفهـوم، لأنهمـا سبب خليط الهواء الصحّي. وعلى وجه العموم يتهمون هـذين الإلهين بالتسـبب بـالأمراض المميتة والموت المفاجئ.

7- ومـن السـلالات الميلتوسـية الباقيـة في ذاكـرة النـاس، سـلالة فـاليس أحـد الحكمـاء السـبعة، وأوّل إغريقـي اشـتغل بـالعلوم الطبيعيـة والرياضيـات، ومـن تلاميـذه أناكسيماندرس وتلميـذ هـذا الأخير أناكسـيمين؛ وسـلالة هيكـاتوس مؤلِّـف كتـاب «التاريخ»، والخطيب إيسخين الـذي يعيش في أيامنـا هـذه منفيـاً بسـبب جرأتـه في القـول أمام بومبيوس الأكبر. ولكنّ بليّة حلّت بالمدينة لأنها أغلقت أبوابها في وجـه الإسـكندر فاستولى عليهـا عنـوة، ومثلها غاليكارنـاس الـتي كانـت قـد وقعـت مـن قبـل في أيـدي الفـرس. ويـزعم كالليسـفين أن الأثينـيين فرضـوا غرامـة علـى الشّـاعر التراجيـدي فـرينيكس لأنـه ألّـف درامـا «اسـتيلاء داريـوس علـى ميلتـوس». - وتقـع جزيـرة لادا أمـام ميلتوس، ومثلها الجزر الصغيرة الواقعة على مقربة من تراجيا التي يستخدمها القراصنة محطة لسفنهم.

8- ثمّ يأتي خليج لاتموس الـذي تقـع فيـه هيراقليـا الـتي تـدعى «تحـت لاتمـوس»، وهـي مدينـة صغيرة فيهـا محطـة شـراعية. وكانـت هـذه تـدعى مـن قبـل لاتمـوس، وهـو الاسم عينه الذي يحمله الجبل الذي يعلو فوقها، وبحسب هيكـاتوس أن هذا الأخير هـو نفسه الذي يدعوه هوميروس «جبل الفتيريين الحراجي»[8] (لأنه يقول، إن جبـل الفـتيريين يقع فوق لاتموس)؛ لكنّ بعضهم يزعم أنّ هذا الجبل هو جبل غريوس الذي يمتدّ تقريباً بموازاة لاتموس من منطقة ميلتوس شرقاً عبر كاريا إلى يفـروم وخـالكيتور. ويقـع هـذا الجبـل فـوق هيراقلييـا مواجهـاً لهـا. وغير بعيـد عـن غيريـوس، إذ تعبر نهـراً صـغيراً قـرب لاتمـوس، يـدلّون علـى قـبر إينـديميون في أحـد الكهـوف. ومـن هيراقليـا إلى مدينـة بـيرّا الصغيرة 100 مرحلة عن طريق البحر.

9- وأبعـد مـن ذلـك بقليـل تمتـدّ الطريـق مـن ميلتـوس إلى هيراقليـا، بمـا في ذلـك ثنيات الخلجان، أمّا الطريق البحرية المباشرة من ميلتوس إلى بيرّا، فطولها 100 مرحلة، وتمتدّ بالقدر نفسه طريق الشاطئ. ولكنْ حينمـا يتعلّـق الأمـر بالأمـاكن الشـهيرة، فـإن على القارئ أن يتحمّل جفاف الوصف.

10- مـن بـيرّا إلى مصـبّ ميانـدرس 50 مرحلـة؛ وتغطـي المكـان سـبخات ومستنقعات. وعلـى بعـد 30 مرحلـة إبحـاراً نحـو الأعلـى بقـوارب تـدفع بالمجـاديف، تقـع

مدينة مينونت، وهي إحدى مدن الإيونيين الاثنتي عشرة التي أتحدت الآن مع ميلتوس بسبب قلّة عدد سكّانها وحالة الفقر التي وصلت إليها. ويقال، إنّ كسيراكس أنعم على ثيميستوكلس بهذه المدينة «للتوابل»، وبمغنيسيا «للخبز»، وبلامبساك «للنبيذ».

11- وعلى بعد 4 مراحل من هنا قرية فيمبريا الكارية؛ وعلى مقربة منها يقع كهف آورنيوس الذي يدعى «هارونيوس»، لأنه مليء بالأبخرة المميتة. وإلى الأعلى من القرية تقع مغنيسيا التي على مياندرس، وهي مستعمرة الماغنيتيين التساليين، والكريتيين، التي سأتحدّثُ عنها قريباً[9].

12- ويمتدّ وراء مصبّ مياندرس ساحل بريينا الذي تقع فوقه بريينا وجبل ميكال الذي تسرح فيه قطعان من الوحوش وتنمو عليه غابة كثيفة. ويقع هذا الجبل على مقربة من جزيرة ساموس ليشكل معها مضيقاً على ذلك الجانب من الرأس البحرية التي تدعى رأس تروغيليوس عرضه قرابة 70 مرحلة. ويدعو بعض الكتّاب بريينا باسم قدموسيا، لأنّ مؤسّسها فيلوتا كان بيوتياً. وبريينا مسقط رأس بيانس، أحد الحكماء السبعة؛ وقد قال هيبوناكس عنه:

في شؤون القضاء، يشبه بيانس البرييني، إنه الأحذق

(مقطع 79، بيرغك)

13- وتقع أمام رأس تروغيليوس البحرية جزيرة صغيرة تحمل الاسم نفسه. ومن هنا أقصر معبر إلى سونيوس: 1600 مرحلة، وفي غضون ذلك ستكون ساموس، وإيكاريا، وكورسي أوّلاً على الجهة اليمنى، وستكون صخور ميلانثوس على الجهة اليسرى. ويجري الجزء الباقي من الإبحار عبر وسط الجزر الكيكلادية. ورأس تروغيليوس البحرية نفسها ليست سوى ذيل من ذيول جبل ميكال. ويتاخم ميكال جبل آخر هو جبل باكتوس الواقع في منطقة إفسس التي يصل إليها امتداد ميسوجيدا.

14- ومن تروغيليوس إلى ساموس 40 مرحلة؛ وتتّجه ساموس وميناؤها ومحطتها الشراعية جنوباً. والشطر الأكبر من المدينة يشاطئ البحر ويقع على مكان مستو، لكنّ جزءاً منها يصعد في الجبل الذي يرتفع فوقها. وإذا ما اقتربت إلى المدينة من الجهة اليمنى، فإنك ترى رأس بوسيدوس البحرية التي تشكّل مع جبل ميكال مضيقاً عرضه 7 مراحل. ويقع على هذه الرأس معبد لبوسيدون؛ وأمامه جزيرة صغيرة هي جزيرة نارثيكيدا؛ وعلى الجهة اليسرى ضاحية قرب حرم هيرا، ويجري هنا نهر

إيمبراس ويقوم حرم قديم لهيرا ومعبد كبير تحوّل الآن إلى مخزن للوحات. وعلاوة على كثير من اللوحات المحفوظة هنا، ثمّة مخازن أخرى للوحات، وعدد من المعابد الصغيرة المليئة بالأعمال الفنيّة القديمة. وفناء المعبد مفتوح مليء بدوره بأروع التماثيل؛ ثلاثة منها أبعادها كبيرة جدّاً، وهي التماثيل الثلاثية التي نحتها ميرون، وقد وضعت ثلاثتها على قاعدة واحدة؛ وحدث أن رفعها أنطونيو من هناك، لكنّ قيصر أغسطس أمر بإعادة اثنين منها إلى مكانهما، وهما تمثال أثينا وتمثال هرقل، أمّا تمثال زيوس فقد نقله أُغسطس إلى الكابيتول وبنى له معبداً صغيراً هناك.

15- ويبلغ طول الطريق حول جزيرة الساموسيين 600 مرحلة. وفي الأزمنة القديمة عندما كان الكاريون يعيشون على الجزيرة، كانت هذه تدعى بارثينيا، ثمّ دعيت أنفيمونس وميلامفيللوس، ودعيت أخيراً سلموس، على اسم بطل محلّيّ ما، أو وافد من إيثاكا أو كيثالينيا. وفي ساموس رأس بحرية تدعى آمبيل تتّجه تقريباً نحو دريبان في إيكاريا؛ وعلى وجه العموم فإنّ الجبل كلّه الذي يضفي على الجزيرة كلّها الطابع الجبلي، يحمل الاسم عينه. وساموس ليست غنية بالنبيذ، مع أنّ الجزر المحيطة بها كلّها تنتج كثيراً منه، أمّا الشطر الأكبر من البرّ المجاور لها، فإنه يشتهر كلّه بأجود أنواع النبيذ: كيوس، وليسبوس، وكوسوس، على سبيل المثال لا الحصر. وفعلاً فإن خمر إفسس والميتروبوليا خمور جيّدة؛ كما تنتج ميسوجيدا، وتمولوس، وكاتاكيكاومينا، وكنيدس، وسميرنا، وسواها من الأماكن الأقلّ أهمية أنواعاً جيّدة من النبيذ لذيذة المذاق أو صالحة للمداواة. وعلى هذا النحو لم تكن ساموس سعيدة الحظ على وجه الخصوص فيما يتعلّق بالنبيذ؛ أمّا فيما عدا ذلك فهي بلاد مباركة، كما يبدو هذا واضحاً من الصراع على امتلاك الجزيرة الذي كان يفضي دائماً إلى حروب؛ زد إلى هذا أنّ الذين يشيدون بالجزيرة لم يترددوا في أن يسحبوا عليها المثل القائل: يوجد في ساموس «حتّى لبن العصفور»، كما قال ميناندرس في مكان ما. وكانت حالة البحبوحة التي تعيشها الجزيرة سبباً لقيام نظام حكم التيرانية فيها بالتالي معاداتها لأثينا.

16- وازدهرت التيرانية خاصة في عهد بوليكراتوس وشقيقه سيلوسونس. فكان بوليكراتوس مشهوراً بهناءته وجبروته إلى حدّ أنه حقّق سيطرته على البحر. وللبرهان على هناءته يسوقون الحدث الآتي(10): لقد رمى عن سابق قصد خاتماً مرصعاً بالحجارة الكريمة في البحر، وبعد مضيّ بعض الوقت جاءه صياد بالسمكة التي

ابتلعت الخاتم (عندما فتحوا بطن السمكة وجدوا الخاتم هناك). ويقولون، إنه عندما علم ملك مصر بالحدث أطلق ما يشبه نبوءة قال فيها، إن الإنسان الذي بلغ هذه القمة من النجاح سرعان ما تنتهي حياته بمأساة. وهذا ما حصل فعلاً، إذ سرعان ما راح التيران ضحية مؤامرة غادرة فوقع أسيراً لدى أحد ولاة الفرس الذي أعدمه شنقاً. ومن معاصريّ بوليكراتوس، الشّاعر الميلتوسي أناكريونت؛ فأشعار هذا الشّاعر مليئة بمدائح هذا التيران. ويقولون أيضاً، إن فيثاغورس عاش في زمن حكم بوليكراتوس لكنّه غادر المدينة عندما رأى تزايد قوّة حكم التيران وسافر إلى مصر وبابل حبّاً بالتعلّم؛ ولمّا عاد ووجد أنّ التيرانية لا تزال على قوّتها أبحر إلى إيطاليا وبقي فيها حتّى توفي. وهذه هي معلوماتي عن بوليكراتوس.

17- أمّا سيلوسونس فقد تركه أخوه وحيداً. وقد قدّم هذا ثيابه هدية لداريوس بن غستاب الذي رآها عليه (عندما لم يكن قد صار إلى ملك بعد) وعبّر عن رغبته بأن تكون له. ولمّا اعتلى داريوس العرش الفارسي تلقّى سيلوسونس منه منصب تيران ساموس هدية ردّاً على هديته السابقة. لكنّه حكم بجور وظلم أدّيا إلى خلوّ المدينة من سكّانها. ومن هنا جاء المثل القائل:

مرتع من الأرض ببركة سيلوسونس.

18- وفي أوّل الأمر أرسل الأثينيون ضدّ ساموس القائد بيريكلس ومعه الشّاعر سوفوكليس اللذين ضربا الحصار حول ساموس المتمرّدة ووضعا سكّانها في حالة مضنية؛ وفيما بعد أرسلوا إلى الجزيرة 2000 مستعمر أثيني اختيروا بالقرعة، وكان بين هؤلاء نيوكلس، والد الفيلسوف إيبيقور الذي كان لا يزال تلميذاً في المدرسة. ويزعمون أن إيبيقور نشأ وتربّى فعلاً في ساموس وتيوس، أمّا في أثينا فقد جرى قبوله في عداد الإيثيبيين[11]. وفي تلك الأثناء كان الشّاعر الكوميدي مياندرس زميلاً له بين الإيثيبيين. كما كان كريوفيل ساموسياً أيضاً، ويروى إنّ هذا استضاف في زمن ما هوميروس على الرحب والسعة، فمنحه الشّاعر حقّ كتابة اسمه الشخصي على مؤلّفه «الاستيلاء على إيخاليا». ولكنّ كاليماخ على الضدّ من هذا يشير في إحدى قصائده الهجائية بوضوح، إلى أنّ القصيدة من شعر كريوفيل نفسه، لكنّ قصة الضيافة جعلتهم ينسبونها إلى هوميروس:

روى لي ساكن في ساموس، أنه استضاف

هوميروس يوماً؛ وأنا الآن أندب مرارة مصير
إيفريتوس، مع إيوليا الحورية. أستغيث بما كتبه
هوميروس، لكنّ كريوفيل حقّق هذه المأثرة.

ويرى بعضهم أن كريوفيل هو معلِّم هوميروس، بينما يرى آخرون أن معلّمه هو أريستوس البروكونيسي.

19- وإلى جانب ساموس تقع جزيرة إيكاريا التي دعي البحر الكاريّ باسمها. وقد أخذت الجزيرة اسمها من إيكاروس ابن ديدالوس، الذي تقول الروايات إنه سقط هناك بينما كان فارّاً مع والده (عندما حلّقا بأجنحتهما من كريت)، لأنه عجز عن الالتزام بالطريق الصحيح؛ فقد حلّق عالياً جدّاً نحو الشمس، فذاب الشمع وسقط جناحاه. -ويشغل محيط الجزيرة 300 مرحلة، وهو خال من المراسي، ما عدا بعض المحطات الشراعية؛ وتدعى الأفضل بينها باسم هيستا. وتمتدّ هذه الرأس البحرية غرباً. وثمّة على الجزيرة حرم لأرطميس يدعى تافروبولوس، ومدينة إينويا الصغيرة، إضافة إلى مدينة صغيرة أخرى تدعى دراكان، سميّة الرأس البحرية التي تقوم عليها، وتوجد هناك محطة شراعية أيضاً. وتقع هذه الرأس البحرية على بعد 80 مرحلة عن الرأس البحرية الساموسية التي تدعى كانفاريوس، وهو ما يشكّل أقصر مسافة بحرية بين هاتين الرأسين. لكنّ عدد سكّان الجزيرة قليل جدّاً الآن، وأكثر الساموسيين يعيشون هنا فقط من أجل قطعانهم.

20- وبعد مضيق ساموس قرب ميكال، إذا أبحرت إلى إفسوس ينكشف على الجهة اليمنى ساحل الإفسسيين؛ ويشغل الساموسيون شطراً من هذا الساحل. وأوّل نقطة على الساحل، هي بانيونيوس التي تقع على ارتفاع 3 مراحل فوق البحر، حيث يحتفل بالبانيونيوس، وهو عيد إيونيّ مشترك يقدّمون فيه الأضاحي لبوسيدون الهيليكوني. ويؤدّي البريينيون دور الكهنة في هذا الاحتفال؛ وأنا كنت قد تحدّثت عنهم لدى وصفي للبيلوبونيز(12). ثمّ تأتي نابولي التي كانت تابعة للإفسسيين في الأزمنة الغابرة، أمّا الآن فهي تابعة للساموسيين الذين بادلوا بها مارافيسوس: مدينة قريبة بمدينة بعيدة. وتأتي بعد ذلك مدينة صغيرة تدعى بيغيلاس فيها حرم لأرطميس المونيخية أسّسه آغاممنون وأسكن فيه فريقاً من مقاتليه؛ ويروى أنّ بعض هؤلاء الجنود عانى من مرض في الأجزاء الخلفية من أجسادهم، فدعوهم «مرضى الأجزاء

الخلفية»[13]؛ وإذ وقع هؤلاء فريسة هذا المرض اضطروا للبقاء هناك؛ وهكذا أخذ المكان اسماً يلائمه. ثمّ تأتي بعد ذلك ميناء تدعى بانورم فيها حرم لأرطميس الإفسسية، ومدينة إفسس. وعلى هذا الساحل نفسه، إلى الأعلى قليلاً، تقع أورتيغيا، وهي حديقة شهيرة أشجارها متنوّعة وأكثرها من السرو. ويجري عبر الحديقة نهر كنكريوس، الذي يقولون إن لاتونا اغتسلت فيه بعد الوضع. فالأسطورة تنقل إلى هنا المكان الذي وضعت حملْها فيه، ومشهد المرضعة أورتيغيا، والمكان المقدّس الذي حصل فيه الوضع، وشجرة الزيتون التي يقال، إنّ الإلهة ارتاحت تحتها لأوّل مرّة بعد آلام المخاض. ويعلو فوق الدغل جبل سولميس الذي يروى إنّ الكوريتيين أخافوا هيرا بصليل أسلحتهم، لأنّ الغيرة دفعت بهذه إلى أن تترصّد الوالدة، فساعدوا لاتونا على أن تخفي ولادة أطفالها. ويوجد في هذا المكان عدد من المعابد: بعضها قديم، وبعضها الآخر بنوه مؤخّراً؛ وفي المعابد القديمة تماثيل خشبية، أمّا المعابد الحديثة ففيها منحوتات سكوباس: لاتونا والحربة الثلاثية، وتقف إلى جانبها أورتغيا حاملة طفلاً على كلّ يد. ويقام هنا كلّ عام احتفال شعبي صاخب. والتزاماً بعادة ما يتنافس الشباب بحميّة هناك لتقديم أفخر أنواع الضيافة. وفي الوقت نفسه تقيم أخوية الكوريتيين مأدبة وتقدم أضحيات صوفية ما.

21- في أوّل الأمر عاش الكاريون والليليغيس في إفسس؛ لكنّ أندروكلس طردهم وأسكن أكثر المستعمرين الذين جاؤوا معه حول أثينوس ونبع هيبيليوس، واستولى إضافة إلى ذلك على المنطقة الواقعة على منحدرات جبل كوريسّ. لقد كان هؤلاء هم سكّان إفسس قبل زمن كريز، لكنّ السكّان نزلوا فيما بعد من منحدرات الجبل، وعاشوا حتّى زمن الإسكندر حول المعبد المعاصر. وأحاط ليسيماخ المدينة المعاصرة بسور، ولكن بما أن السكّان لم يشاؤوا أن يتركوا الأماكن القديمة التي اعتادوا عليها إلاّ مرغمين، فقد انتظر موسم الأمطار الغزيرة وأمر بإغلاق قنوات تصريف المياه ليزيد من فاعلية غزارة الأمطار وجعل المدينة تغرق في الفيضان. وعندئذٍ وافق السكّان على الانتقال برضا. لقد دعا ليسماخ المدينة أرسينويا، على اسم زوجته؛ لكنّ الاسم القديم بقي هو الغالب. وكان للمدينة مجلس شيوخ معيّن تعييناً؛ وأُلحق بهم أشخاص يدعون إيبيكليتس الذين كانوا مسؤولين عن إدارة شؤون المدينة كلّها.

22- وكان خيرسيفون أوّل من بنى معبداً لأرطميس، ثمّ وسّعه شخص آخر. وبعد أن أحرق المدعو هيروستراتس المعبد، بنى المواطنون معبداً آخر أكثر بهاء، فقد

جمعوا حليّ النساء لهذا الغرض وتبرّعوا بأملاك لهم، وباعوا أعمدة المعبد القديمة. وهذا ما تؤكّده التعليمات التي صدرت عندئذٍ. ويقول أرتيميدور، إن تيمييوس التافروميني، الذي لم يكن على علم بهذه التعليمات، والذي كان حسوداً بطبعه، وواشياً (ولذلك لقّب بإيبيتيمييوس)[14]، يزعم أنّ الإفسسيين أعادوا بناء المعبد بالأموال التي وضعها الفرس أمانة لديهم. بيد أنه لم يكن عندهم حينئذٍ أيّ أموال موضوعة أمانة، وحتى لو كانت هذه عندهم فعلاً، لالتهمتها النيران التي التهمت المعبد. وبعد الحريق الذي دمّر سقف المعبد أيضاً، من الذي يمكن أن يخزن أموالاً في حرم سقفه مفتوح على السماء؟ ويواصل أرتيميدور قائلاً، إنّ الإسكندر تعهّد للإفسسيين بأن يسدّد كلّ ما يلزم شريطة أن يذكر اسمه في نصب التكريس التذكاري، لكنّهم رفضوا؛ فلم يشاؤوا أن يوصموا بالكفر أو يتهموا بنهب المعبد. ويعلّق أرتيميدور مادحاً إفسس التي قالت للملك[15]، لا يليق بالإله أن يبني معابد لآلهة.

23- وبحسب أرتيميدور أنه بعد الانتهاء من بناء المعبد، الذي كان من إبداعات هيروكراتوس[16] (هو نفسه الذي بنى الإسكندرية؛ وهو نفسه الذي اقترح على الإسكندر تحويل جبل أفون إلى لوحة تحمل صورته وهو يؤدّي طقس سكب الزيت من إناء ما في كأس، كما اقترح أيضاً بناء مدينتين: واحدة على الجانب اليميني للجبل، والأخرى على جانبه اليساري، وإطلاق نهر يجري من إحدى المدينتين إلى الأخرى)، أكرّر، أنه بعد الانتهاء من بناء المعبد، جاء أكثر التقدمات الأخرى لتزيين المعبد وزخرفته من الرساميين المحلّيين تعبيراً منهم عن إجلالهم لقدسية المعبد، بينما كانت زخرفة المحراب وزينته كلّها تقريباً، من أعمال براكسيتل. وعلى أيّ حال أروني عدداً من أعمال فراسون الذي نحت تمثال هيكاتي، وصنع تمثال بنيلوبي الشمعي، وتمثال «العجوز إيفريكلييا». وكان كهنة المعبد من الخصيان الذين دعوهم ميغابيزيين. وكان الإفسسيون دائماً يدعون أفراداً من أماكن أخرى ممن يستحقّون أن يشغلوا هذا المنصب السامي ويقدّمون لهم أرفع آيات الإجلال؛ وكان ينبغي أن يكون مع هؤلاء كاهنات فتيات بالضرورة. ولكنّ قليلاً من مثل هذه العادات يراعى الآن، أمّا العادات الأخرى فقد خرجت من ميدان الاستخدام نهائياً. ويبقى المعبد حتّى اليوم ملاذاً[17] آمناً، مع أنّ حدود اللجوء غالباً ما كانت تتغيّر. فالإسكندر على سبيل المثال زادها بمقدار مرحلة كاملة، أمّا ميتريدات فقد أطلق سهماً من زاوية السقف، وظنّ أن مداه يتجاوز المرحلة بقليل؛ ثمّ جاء أنطونيو أخيراً وضاعف هذه المسافة، وأدخل شطراً من

المدينة داخل هذه الحدود. ولكن تبيّن أن زيادة مدى حدود الملاذ كان عملاً مؤذياً، لأنها وضعت المدينة تحت سلطة العناصر الإجرامية؛ لذلك عاد أغسطس قيصر فألغاها.

24- وفي المدينة ترسانة لإصلاح السفن، وميناء. وقد جعل البنّاؤون مدخل الميناء أكثر ضيقاً، لكنّهم أخطؤوا وأخطأ معهم الملك الذي أمرهم أن يفعلوا ذلك (وكان هذا على وجه التحديد، الملك أتّال فيلادلف). فقد اعتقد هذا الملك أن المدخل سيكون عميقاً بما يكفي لاستقبال سفن الشحن الكبيرة (وعلى النحو عينه الميناء نفسها أيضاً، إذ كانت من قبل ضحلة بسبب الرواسب التي كان يحملها نهر كايستروس)، إذا ما تمّ طمر المياه الضحلة عند المدخل الذي كان واسعاً جدّاً عندئذٍ، ولذلك أمر ببناء سدّ. بيد أنّ ما حدث هو العكس: لقد جعلت الترسبات المحتجزة داخل الميناء من هذه الأخيرة ضحلة حتّى مدخلها. وقبل ذلك كان المدّ والجزر يقلّصان كمية الترسبات كثيراً، إذ كانا يحملانها إلى عمق البحر. وعلى أيّ حال، هذه هي خاصيات الميناء. أمّا المدينة فإن موقعها الملائم، إضافة إلى السمات المماثلة الأخرى، جعلها تتنامى يوماً بعد يوم حتّى غدت أكبر موانئ آسيا على هذا الجانب من طوروس.

25- لقد كانت هذه المدينة مسقط رأس شخصيات شهيرة مثل: هيراقليط الملقب بالغامض، وهيرمودور الذي قال عنه هيراقليط نفسه: «ينبغي أن يعدم كلّ الإفسسيين الذين نفوا هيرمودور، الشخص الأكثر نفعاً بينهم قائلين: فليطرد من بيننا الشخص الأكثر نفعاً؛ وإذا كان هناك مثل هذا الشخص فليمض وليقم في مكان آخر وبين أناس آخرين». ويهيّأ لي أنّ هذا الشخص وضع للرومان بعض القوانين. ومن إفسس خرج أيضاً الشّاعر هيبوناكس، والرسامان بارسيوس وأبيلليس؛ ومن شخصيات الزمن الحديث خرج من إفسس الخطيب الإسكندر الذي لقّب بالليخنوس[18]، وكان هذا رجل دولة كتب في التاريخ وترك قصائد تربوية صوّر فيها أوضاع الأجرام السماوية، وأعطى وصفاً جغرافياً للقارّات، فكرّس قصيدة لوصف كلّ قارّة.

26- وتقع بعد مصبّ كايستروس بحيرة شكّلها فيضان البحر، تدعى سيلينوسيا؛ وتقع بالقرب منها بحيرة أخرى تتّصل بالأولى؛ وتدّر البحيرتان موارد كبيرة. ومع أنّ هاتين البحيرتين بحيرتان مقدّستان، إلاّ أن الملوك انتزعوهما من الإلهة، بيد أنّ الرومان أعادوهما إليها. لكنّ المتعهدين الحكوميين انتزعوا حق جباية الضرائب من جديد عنوة، إلاّ أن سفارة أرتيميدور إلى روما أسفرت كما يقول هو نفسه، عن إعادة

البحيرتين إلى الإلهة واستعادة هيراقليوتيدا بحكم قضائي، بعد أن كانت قد سُلخت عن إفسس. وعرفاناً بهذا الجميل أقامت المدينة تمثالاً ذهبياً له في المعبد. وفي أقصى أطراف البحيرة يقع حرم الملك الذي يقال، إنّ أغاممنون هو الذي بناه.

27- ثمّ يأتي جبل هاليسوس ومدينة كولوثون الإيونية؛ وتقع أمامها أرض مقدّسة لأبوللون الكلاريسي حيث كان يوجد هنا في زمن ما موْحى. وتقول الحكاية، إنّ كالخانس وصل إلى هنا مع أمفيلوخ ابن أمفيارايوس في طريق عودته من تحت أسوار طروادا سيراً على الأقدام، لكنّه قضى كمداً إذ قابل على مقربة من كلارس متنبّئاً أقوى منه هو نفسه، وكان هذا على وجه التحديد موبسوس ابن مانتو ابنة تيريسيوس. ويعرض هسيود الأسطورة على هذا النحو تقريباً، إذ يطرح على موبسوس السؤال الآتي:

يا للعجب كم من الثمار على شجرة التين البرية هذه،

مع أنها لا تزال صغيرة؛ فهل تستطيع أن تعرف عددها؟

فأجابه موبسوس:

عددها عشرة آلاف، لكنّ مقدارها يساوي الميدمن.

هكذا قال: تبيّن أن عدد الثمار ومقدارها كانا دقيقين.

عندئذٍ أطبقت عيني كالخانس غفوة الموت.

(*مقطع* 160، *رجاع*)

ولكن كالخانس، كما يقول ثيريكيدس، طرح سؤالاً عن خنزيرة عاشر: كم فرخاً تحمل؟ فأجاب موبسوس أنها تحمل ثلاثة، بينها أنثى واحدة؛ وعندما ظهر أنّ التخمين دقيق، مات كالخانس غمّاً. غير أنّ آخرين يزعمون العكس، فيقولون إن كالخانس سأل سؤال الخنزيرة، وإن موبسوس سأل سؤال التينة وإنّ الأخير هو الذي أجاب الإجابة الصحيحة؛ والثاني أخطأ فمات غمّاً وفق نبوءة المتنبّئ. كما يذكر سوفوكليس الموحى بدوره، في «طلب إعادة يلينا»، وإنه كان مقدّراً لكالخانس أن يموت لدى لقائه متنبّئ أقوى منه. ولكنّ سوفوكليس ينقل مشهد المباراة وموت كالخانس إلى كيليكيا. إن هذا ما تقوله الحكايات القديمة.

28- وفي زمن ما كان الكولوثونيون يمتلكون قوات بحرية يحسب لها حساب، وقوّة مهمّة من سلاح الفرسان، فقد تفوّقوا في هذا السلاح الأخير على سواهم

إلى درجة أنّ كلّ معركة كان النصر فيها صعباً، كان يكفي أن يتدخّل الفرسان الكولوثونيون حتّى يحسم الأمر؛ ومن هنا شاع المثل القائل: «لقد أخذ كولوثون عوناً له»، عندما كان يوضع للأمر حدّ نهائي راسخ. وعاش في ذاكرة الكولوثونيين الشّاعر ميمنيدموس عازف المزمار وشاعر المراثي، وكسينوفونت الفيلسوف وعالم الطبيعيات الذي ألّف «السيلات»[19]؛ كما يذكر بينداروس شخصاً آخر يدعى بوليمناست بصفته موسيقياً شهيراً:

تعرف صوتاً مألوفاً، صوت

بوليمناست الكولوثوني

(*مقطع* 66، *بيويش*)

بل يزعم بعضهم أن كولوثون مسقط رأس هوميروس أيضاً. ومن إفسس إلى كولوثون 70 مرحلة خطاً مباشراً، و120 مرحلة طريقاً متعرّجة.

29- ويأتي بعد كولوثون جبل كوراكي وجزيرة صغيرة مكرّسة لأرطميس تعوم إليها إناث الأيائل لتضع مواليدها عليها، كما يفترضون. ثمّ تلي ليبيدوس، على بعد 120 مرحلة من كولوثون. ويقع هنا مكان اجتماعات، وقرية «لرسّاميّ ديونيسيوس»[20] كلّهم في بيوتيا وصولاً إلى الهليسبونت؛ وتقام على هذه الجزيرة الاحتفالات والألعاب السنوية التي تنظّم على شرف ديونيسيوس. وكان هؤلاء يعيشون قبل ذلك في تيوس، المدينة الإيونية التي تأتي مباشرة بعد كولوثون، ولكن بعد أن اشتعلت انتفاضة هناك فرّوا إلى إفسس بحثاً عن ملجأ. وحينما نقلهم أتال للعيش في ميونيس، بين تيوس وليبيدوس، أرسل التيوسيون سفارة إلى الرومان يطلبون منهم عدم السماح للميونيين ببناء تحصينات ضدهم. عندئذٍ انتقل الميونيون إلى ليسبوس، فاستقبلهم سكّان هذه المدينة على الرحب والسعة، لأنهم كانوا يعانون نقصاً في عدد السكّان. وتبعد تيوس 120 مرحلة عن ليبيدوس؛ وتقع بينهما جزيرة أسبيدا، التي يدعوها آخرون أوكونيس. وقد بنيت ميونس على مرتفع له شكل شبه جزيرة.

30- وتيوس بدورها تقع على شبه جزيرة، وفيها ميناء. ويتحدّر من هناك الشّاعر الماجن أناكريونت؛ وفي زمنه ترك التيوسيون مدينتهم وانتقلوا للعيش في مدينة أبديرا التراقية، لأنهم لم يطيقوا إهانات الفرس لهم، ومن هنا جاء المثل القائل:

أبديرا مستعمرة التيوسيين المجيدة

لكـــنّ بعضـــهم عـــاد إلى المدينـــة الأمّ بعـــد وقـــت. وأنـــا كنـــت قـــد قلـــت[21]، إنّ أبيلليكونت كان تيوسياً، وإن المؤرّخ هيكاتوس ينتمي إلى المدينة عينها. وهنـاك ميناء أخرى هي ميناء هيريدس الواقعة على بعد 30 مرحلة من المدينة.

31- يلي ذلك منطقة الخلكيديين وبرزخ كرسونيس الذي يملكه التيوسـييون والإرثريون. ويقطن هـؤلاء الأخيرون على هـذا الجانب مـن البرزخ، ويعيش التيوسـيون والكلازومينيـون علـى الـبرزخ نفسـه. أمّـا الجهـة الجنوبيـة مـن الـبرزخ، أي منطقـة الخلكيديين، فيشغلها التيوسيون، ويشغل الكلازومينيون جهته الشمالية حيث تتاخم منطقـتهم المنطقـة الإرثريـة. ويقـع في أوّل الـبرزخ مكـان يـدعى هيبوكريمنـوس الـذي يفصل المنطقة الإرثرية من الجهة الداخلية للبرزخ، ويفصل من جهته الخارجية منطقة الكلازومينـيين. وإلى الأعلـى مـن منطقـة الخلكيـديين تقـع أرض مقدّسـة مكرّسـة للإسكندر بن فيليب. ويقيمون في هذا المكان ألعاباً تدعى الألعاب الإسكندرية التي ينظمهـا اللقـاء العـام المشـترك للإيـونيين. ويبلـغ طـول المعـبر عـبر الـبرزخ، مـن أرض الإسكندر المقدّسة ومنطقة الخلكيديين، حتّى هيبوكريمنوس 50 مرحلة، بينما يبلغ امتداد خطّ الإبحار حول المكان 1000 مرحلة. وفي منتصف الطريق الدائرية تقريباً، تقع مدينة إريثرا الإيونية وميناؤها؛ وتقع أمامها 4 جزر صغيرة تدعى جزر هيبّا[22].

32- وقبـل الوصـول إلى إريثـرا بقليـل تقـع أوّلاً مدينـة صـغيرة تـدعى إرّا عائـدة للتيوسيين؛ ويأتي بعد ذلك جبل شاهق يدعى كوريك تقوم عند سفوحه ميناء تسمّى كاسيست، وميناء أخرى تدعى إريثرا؛ يلي ذلك عدد من الموانئ التي تلي واحدتها الأخـرى. ويقولـون، إن السـاحل القريـب مـن كوريـك كلّـه كـان وكـراً لمـن يـدعون القراصـنة الكـوريكيين الـذين ابتكـروا طريقـة جديـدة لمهاجمـة البحـارة: يتـوزّع القراصنة على الموانئ ويسترقون السمع إلى أحاديث التجار هناك ليعلموا أيّ بضائع يحملون وإلى أين يبحرون؛ ثمّ يجتمعون معاً ويغيرون على التجار في عرض البحر؛ ولـذلك فـإنّ كـلّ مـن يتطفّـل علـى شـؤون الآخـرين ويحـاول أن يسـترق السـمع إلى الأحاديـث السّرّية، يـدعى كوريكيـاً، بل يستخدم المثل التـالي أيضـاً عنـدما يكـون شـخص مـا واثقاً من أنّ تصرّفاته أو أقواله طيّ الكتمان، بينما حقيقة الأمر أنها بمتناول الآخـرين الذين يراقبونه خلسة ويسعون لمعرفة ما لا يخصّهم. يقول المثل:

حتى الكوريكي كان يمكنه أن يعرف عن هذا.

33- وبعد جبل كوريك تـأتي جزيـرة صغيرة تـدعى هـالونيس. تليهـا أرغينـوس، وهـي رأس بحريـة في المنطقـة الإرثريـة، ولا تبعـد كـثيراً عـن بوسـيديوس الكيوسـيين. وتشـكل بوسـيديوس مضـيقاً عرضـه حـوالي 60 مرحلـة. وبـين إريثـرا وهيبوكـريمنـوس يرتفـع جبـل عـال يـدعى ميمـانس غنيّ بـالوحوش ومكسـوّ بغابـة كثيفـة. ثمّ تـأتي قريـة كيبيليا، ورأس بحرية تدعى ميلينا[22]، فيها مقلع لحجارة الطواحين.

34- ومن إريثرا خرجـت سيفيلاّ، وهـي امـرأة ملهمـة ومتنبّـئة معروفـة في العـالم القديم. ومن زمن الإسـكندر تنتمي إلى هذه المدينة نفسها متنبّئة أخرى تدعى أثينايدس. وفي زمننـا نحـن ولـد هنـاك هيراقليـدس، طبيـب مدرسـة هيروفيـل، وزميـل دراسـة لأبوللونيوس موسا.

35- أمّا كيّوس فإن امتداد محيطها إذا تنقلت بـرّاً، 900 مرحلـة. وفي الجزيـرة مدينة فيها ميناء جيّدة ومحطـة سفن شـراعية تستوعب 80 سـفينة. وإذا مـا طفـت حـول الجزيرة انطلاقاً من المدينة وكانت الجزيـرة علـى يمينـك، فإنـك تقـترب مـن بوسـيدونيا أوّلاً؛ يلي ذلك فانا، وهي ميناء عميقـة، ثـمّ معبـد أبوللـون فـدغل مـن النخيـل. وبعـد ذلـك تأتي نوتيوس، وهـي محطـة سـفن شـراعية علـى سـاحل البحـر، ثـمّ لاينـوت، وهـي أيضـاً محطة شراعية على سـاحل البحـر؛ ويمتـدّ مـن هنـاك إلى المدينـة بـرزخ طولـه 60 مرحلـة، لكنّ الطريق الملتفة التي كنت قد سلكتها للتوّ، تشكّل 360 مرحلة. وتـأتي بعـد ذلـك رأس ميلينا التي تقع في مواجهتها على بعد 50 مرحلة جزيـرة بسيرا، وهـي جزيـرة عاليـة فيها مدينة تحمل الاسم عينه. ويبلـغ امتـداد محيط الجزيـرة 40 مرحلـة. وأبعـد منهـا تقـع إريوسيا، وهي موقع صخري وعر ليس فيه أيّ مراس، ويمتدّ على ما يقارب 30 مرحلة، ولكنّه ينتج أفخر أنواع النبيذ الإغريقي. ويعلو وراءهـا جبـل بيلينيـوس، وهـو أعلـى قمـة جبليـة في الجزيـرة. كمـا يوجـد في الجزيـرة مقلـع لحجـارة المرمـر. ومـن الشخصـيات الكيوسية، الشّاعر الدرامي إيون، والمؤرّخ ثيوبومبوس، والصوفي ثيوكريتيس. وكـان هذان الأخيران معارضَيْن سياسييْن. كمـا يـدّعي الكيوسـيون انتمـاء هـوميروس إلـيهم، وأقوى قرائنهم في هذا السياق، هـي انتماء من يدعون بالهوميروسـيين إلى سـلالته؛ ويـاتي بينداروس على ذكر هؤلاء:

ومن هنا غالباً ما كان الهوميروسيون

البارعون في غناء القصائد [يبدؤون]...

(*الحوريات* II، 1)

وفي زمن ما كان الكيوسيون يملكون أسطولاً، ويسعون لنيل حريتهم والسيادة على البحر. والمسافة من كيوس إلى ليسبوس، إذا أبحرنا مع الريح الجنوبية، حوالي 400 مرحلة.

36- وبعد هيبوكرين يأتي هيتروس، وهو مكان كانت تقع فيه في زمن ما كلازومينا. وتأتي بعد ذلك مدينة معاصرة مع 8 جزر صغير واقعة أمامها يمارس سكّانها العمل الزراعي. ومن أشهر الكلازومينيين الفيلسوف وعالم الطبيعيات الشهير أناكساغوراس، تلميذ الميلتوسي أناكسيمين. وكان من مستمعيّ أناكساغوراس كلّ من الفيلسوف وعالم الطبيعيات أرخيلايوس، والشّاعر يوريبيدس. ثمّ يأتي بعدها حرم لأبوللون، وينابيع مياه حارّة وخليج ومدينة السميرنيين.

37- ويأتي بعد ذلك خليج آخر كانت تقع فيه سميرنا القديمة على مسافة 20 مرحلة من المدينة المعاصرة. وبعد أن دمّر الليديون سميرنا، بقيت على قيد الحياة قرابة 400 سنة، ولكن على شكل قرية بسيطة. ثمّ أعاد أنتيغون بناءها، وتابع العمل على ذلك بعده ليسيماخ، أمّا الآن فالمدينة من أبهى المدن الإيونية كلّها. وقد بني جزء من المدينة على الجبل، ويقع الشطر الأعظم منها في سهل قرب ميناء، وغير بعيد عن معبد الأمّ العظمى وقرب الجمنازيوم. ومخطط بناء المدينة بحسب الأحياء، مخطط بديع جدّاً؛ فالأحياء تمتدّ بحسب الإمكان على خطوط مستقيمة؛ والشوارع مرصوفة بالحجارة، وتنتشر في المدينة أروقة كبيرة مربّعة الشكل بطابقين، علوي وسفلي. كما توجد في المدينة مكتبة وهوميريوس، وهذا الأخير عبارة عن رواق مربّع الشكل فيه معبد لهوميروس وتمثال خشبيّ له. لأنّ السميرنيين أيضاً كانت لهم أسّس خاصة للادعاء بانتماء هوميروس إليهم؛ فقد كانت متداولة عندهم فعلاً مسكوكة نقدية تسمّى هوميروس. ويجري نهر ميليت غير بعيد عن أسوار المدينة. ومن منشآت المدينة الأخرى ميناء مغلقة. لكنّ المدينة تعاني عيباً له أهميته تسبب به البنّاؤون: عندما رصفوا شوارع المدينة بالحجارة، لم يمدّوا تحتها قنوات لتصريف المياه، لذلك ترى القاذورات تغطي سطحها، خاصة أثناء هطل الأمطار، عندما تفيض البالوعات. وهنا ألقى دولابيلا القبض على تريبونيوس بعد حصار المدينة وأخذه أسيراً، فتريبونيوس هذا كان أحد المتآمرين الذين غدروا بقيصر الإلهي وقتلوه، وفي غضون ذلك دمّر دولابيلا أجزاء كثيرة من المدينة.

38- وتأتي بعد سميرنا مدينة صغيرة، هي مدينة ليفكي. وبعد وفاة أتّال

فيلوميتور حرّض أريستونيك هذه المدينة على العصيان. فقد عدّ أريستونيك نفسه من أحفاد السلالة الملكية وسعى للاستيلاء على العرش. ولكن بعد أن ألحق الإفسسيون الهزيمة به في معركة بحرية وقعت عند شواطئ كيما، ترك أريستونيك سميرنا وفرّ هارباً؛ ثمّ توغّل بعد ذلك في عمق البلاد ونجح أن يجمع حوله بسرعة قياسية، حشوداً من الفقراء والعبيد الذين أغرتهم وعوده بمنحهم الحرية، إذ كان يناديهم: «بمواطني مدينة الشمس». فاجتاح في الأوّل ثياتيرا، ثمّ نجح في الاستيلاء على أبوللونيدا والتفت إلى الحصون الأخرى. لكنّه لم يصمد طويلاً، فقد أسرعت المدن وأرسلت ضده قوّات كبيرة قدّم لها نيقوديموس البيثيني وملوك قبدوقيا عوناً مهمّاً ثمّ وصل خمسة سفراء رومان، وبعد ذلك قوات رومانية بقيادة القنصل[24] بوليبيوس كراسوس، ثمّ مارك بيربيرنا؛ وقد نجح هذا الأخير بإنهاء الحرب وإلقاء القبض على أريستونيك حياً وإرساله إلى روما. وعلى هذا النحو يكون أريستونيك قد أنهى ما تبقى له من العمر في السجن، أمّا بيربيرنا فقد قتله المرض، وسقط كراسوس قتيلاً في مواجهة مع جماعات ما، هاجمته قرب ليفكي. فوصل إلى هنا القنصل مانيوس أكويليوس[25] ومعه 10 موفدين، وأعطى الولاية بنية تنظيمية لا تزال قائمة حتّى يومنا هذا. - وبعد ليفكي تأتي ثوكيا الواقعة في الخليج؛ وأنا كنت قد تحدّثت عنها لدى وصفي لمساليا. وتأتي بعد ذلك حدود الإيونيين والإيوليين، وهو ما أتيت على ذكره من قبل. وفي داخل البلاد الإيونية الساحلية، بقيت الأماكن الواقعة على طول الطريق من إفسس إلى أنطاكيا ميانـدرس من غير وصف. ويسكن هذه المناطق خليط من الليديين، والكاريين، والإغريق.

39- إنّ أوّل مدينة تأتي بعد إفسس، هي مغنيسيا الإيولية التي تسمّى مغنيسيا التي على مياندرس، لأنها تقع على مقربة من هذا النهر؛ ويجري أقرب إلى المدينة نهر آخر هو نهر ليثيوس، أحد روافد مياندرس الذي ينبع من جبل باكتوس الواقع في منطقة إفسس. ويجري ليثيوس آخر عن غورتينا، وليثيوس ثالث عند تريكّا، حيث يقولون، إنّ إسكليبوس ولد هناك، وثمّة ليثيوس رابع يجري في بلاد الهسبيريتيس الليبيين[26]. وتقع مدينة مغنيسيا في سهل ينبسط قرب جبل يدعى فوراكس حيث يقال إنّ اللغوي دافيتس علّق على صليب لأنه أهان الملوك في قوله:

قرمز كروشكم من آلام الناس، وخزائن ليسيماخ

جعلتموها هباء، الليديون، والفريجيون أصحاب

العنفوان خضعوا لكم.

ويقال إنّ دافيتس تلقّى نبوءة أشارت عليه أن يحذر فوراكس.

40- ويبدو على أغلب الظنّ أن المغنيسيين أحفاد الدلفيين الذين كانوا يعيشون في الجبال الديديمية في تساليا، وعنهم يقول هسيود:

أو كالذين يعيشون على هضاب ديديم المقدّسة،

هناك في السهل الدوتي، على طول أميروس الوفير العناقيد

حيث العذراء غسلت قدميها بأمواج بحيرة بيبيدا.

(مقطع 122. رجاخ)

وكان يقع هنا أيضاً حرم دينديمينا والدة الآلهة. وتقول الحكاية، إن زوجة ثيميستوكلس (ويقول آخرون ابنته)، كانت فيه كاهنة. ولكنّ الحرم لم يعد موجوداً الآن لأنّ المدينة انتقلت إلى مكان آخر. وفي المدينة المعاصرة حرم لأرطميس لوكوثرينا، وهو أصغر من حرم إفسس حجماً، وتقدماته أقلّ، لكنّه يتفوّق عليه كثيراً من حيث تناسق البنية الفنية للسور المقدّس. فهذا الأخير هو أكبر أسوار معابد آسيا كلّها ما عدا سور معبد إفسس وسور معبد ديديم. وكانت قد حلّت بالمغنيسيين قديماً بليّة محزنة: لقد استأصل التريريون والشعب الكيميري شأفتهم، مع أنهم عاشوا سعداء لزمن طويل؛ وفي العام التالي استولى الميلتوسيون على هذا المكان. والحقيقة أنّ كاللينوس يذكر المغنيسيين كشعب لا يزال مزدهراً وحقّق انتصاراً على الإفسسيين، بينما كان أرخيلوخ على علم، كما يهيَّأ لي، بالبلية التي حلّت بهم:

لهفي على الفاسوسيين، أعظم منه على بليّة المغنيسيين...

(مقطع 20. بيرغك)

ومن هنا يمكننا أن نستنتج أنّ أرخيلوخ عاش بعد كاللينوس. فكاللينوس يذكر اجتياحاً كيميرياً ما وقع في زمن أقدم:

هكذا يهاجم الكيميريون الآن، جحافل مخيفة...

(مقطع 3. بيرغك)

مشيراً بهذا بوضوح إلى الاستيلاء على ساردا.

41- ومن أشهر من أنجبتهم مغنيسيا، هيجيسيوس الخطيب الذي كان أكثر من جميعهم حماسة لإدخال ما يسمّى الأسلوب الآسيوي، ما أدّى إلى إفساد النمط الأتيكي المستقرّ؛ ومنهم أيضاً الشّاعر الماجن سيموس الذي أفسد بدوره أسلوب شعراء المجون السابقين بإدخاله السيموديا[27] (وهذا ما فعله الليسيودس والماغودس بدرجة أكبر)[28]؛ والمصارع كليوماخ الذي أُغرم بأحد الكينيدس[29]، وبفتاة كانت لدى الأخير يعيلها، فغدا يقلّد أسلوب الكنيدس وطريقة حديثهم. وكان سوتادس أوّل من دوّن حديث الكينيدس تلاه في هذا الإسكندر الإيتولي. فقد كان هذان يقلّدان الأحاديث نثراً، ويرافقهما ليسيوس بالموسيقا، وهذا ما كان يفعله سيموس قبله. وأبرز المسرح عازف القيثارة أناكسينور، وأعلى أنطونيو من شأنه قدر ما استطاع، فعيّنه على جباية الإتاوات من أربع مدن، وعيّن له جنوداً لحراسته. كما أضفت عليه مدينته الأمّ آيات التبجيل، وألبسته الرداء القرمزي بصفته مكرّساً لزيوس مخلّص المدينة، وهذا ما يشير إليه تمثاله المزخرف في وسط ساحة السوق. وثمّة تمثال له في المسرح يحمل نصاً يقول:

عذوبة أسماعنا راحت إلى هذا المغنّي الذي

أسرها بإلهامٍ يسمو، إلهامٍ شبه إلهام الآلهة.

(*الأوذيسا* IX، 3)

لكنّ الحفّار لم يحسب مساحة المكان بدقّة، فاضطر إلى إسقاط الحرف الأخير من البيت الثاني، لأنّ عرض أسفل القاعدة لم يكن كافياً. لذلك وضع الحفار المدينة موضع الاتهام بالجهل بسبب ازدواجية مغزى النصّ: هل ينبغي فهم كلمة شبه هنا بصيغتها الاسمية أم بصيغة المضاف إليه؟[30] فكثيرون يكتبون صيغة المضاف إليه من غير حرف الإيوتا، بل يرفضون رفضاً قاطعاً مشروعية هذا الديدن، لأنه يفتقر إلى أيّ أساس طبيعي.

42- وبعد مغنيسيا تأتي الطريق التي تقود إلى ترالاّ، ويقع على يسارها جبل ميسوجيدا، وعلى الطريق نفسها من جهة اليمين يقع سهل مياندرس الذي يشغله الليديون، والكاريون والإيونيون (الميلتوسيون منهم و الميسيسيون)، وإيوليوّ مغنيسيا. ومثل هذه الطريقة في وصف الأماكن تستخدم حتّى نيسّا وأنطاكيا. فمدينة الترالين تقع في مكان له شكل المعيّن؛ قمته حصّنتها الطبيعة نفسها؛ وأطرافه محصّنة بدورها

تحصيناً جيّداً. وفي المدينة كثافة سكّانية عالية (لا تجاريها في هذا أيّ مدينة آسيوية أخرى) تتألّف من أناس أثرياء، فبعض سكّانها يشغلون بشكل دائم المناصب الأولى من حيث أهميتها في المقاطعة، ويدعونهم أسيارخ[31]. وكان منهم بيثودوروس النيسّي الذي انتقل للإقامة في ترالاّ بسبب شهرة هذه المدينة؛ وقد تميّز وبعض الآخرين بأواصر الصداقة مع بومبييوس. وحظي بمكانة ملكية لقاء 2000 تالانت؛ لكنّ قيصر الإلهي باع أملاك بيثودوروس بسبب صداقة هذا الأخير مع بومبيوس، فاشتراها بيثودوروس نفسه وترك لأبنائه تركة ليست بالقليلة. وابنته بيثودوريدس التي كنت قد تحدّثت عنها[32]، هي الآن ملكة البونتس. وبرز إلى جانب بيثودوروس في أيامنا هذه، العالم مينودوروس الذي علاوة على كونه عالماً يعدّ شخصية مرموقة ورصينة، فقد شغل منصب كاهن زيوس اللاريسي. بيد أنه راح ضحية دسائس أصدقاء دوميسيان آينوباربوس؛ فقد صدّق هذا الأخير الوشاة وأمر بإعدام مينودوروس بتهمة التحريض على العصيان في الأسطول. ومن هذه المدينة أيضاً، الخطيب الشهير ديونيسوكليس، وخليفته في هذا الفنّ داماس سكومبروس. وبحسب الحكاية إن الآرغوسيين وتراليين تراقيين ما هم الذين أسّسوا ترالاّ التي أخذت اسمها من هؤلاء الأخيرين. وفي زمن الحرب مع ميتريدات كانت المدينة تحت سلطة تيرانية أبناء كراتيب لبعض الوقت.

43- وتقع نيسّا عند ميسوجيدا، ويتوضّع الشطر الأكبر منها على منحدرات هذا الجبل؛ وهذه المدينة مدينة مزدوجة، إذا جاز التعبير، لأنّ نهراً جبلياً يشطرها إلى شطرين ويشكل أخدوداً على أحد جانبيه جسر يصل بين شطري المدينة، ويزيّن الجانب الآخر منه مدرّج بقناة جوفية مسقوفة لتصريف مياه النهر. وتعلو على مقربة من المسرح هضبتان: عند سفح إحداهما جمنازيوم للشباب، وعند سفح الأخرى ساحة السوق وجمنازيوم لكبار السنّ. ويجاور المدينة من جهة الجنوب سهل، كما ترالاّ.

44- وعلى الطريق بين ترالاّ ونيسّا، غير بعيد عن المدينة، تقع قرية أهاراكي النيسيسيّة؛ وثمّة حرم لبلوتون تتبع له أرض مقدّسة غنية، ومعبد لبلوتون وكورا، ويقع هناك أيضاً هارونيوس، وهو كهف يقع فوق أرض مقدّسة، سماته الطبيعية تثير الدهشة. فيروى أنّ المرضى الذين يؤمنون بالقدرات الشفائية لهذين الإلهين يأتون إلى هنا ويقيمون في القرية القريبة من الكهف لدى كهنة أصحاب خبرات وتجارب؛ ويقضي هؤلاء الأخيرون الليلة معهم في الكهف، ثمّ يصفون لهم طريقة العلاج على أساس الأحلام التي يحلمونها. وهم من يرفع إلى الإلهين توسلات الشفاء. وفي أحيان كثيرة

يقود الكهنة المرضى أنفسهم إلى الكهف ويتركونهم هناك مستلقين بهدوء وسكينة من غير طعام، كما لو كانوا في وجْر وحش. وفي بعض الأحيان يصدّق المرضى أحلامهم، إلاّ أنهم في الأحوال كلّها يتوجّهون إلى أولئك الأشخاص ليشرحوا المغزى المكنون لأحلامهم، ويطلبوا النصح. وهذا المكان هو بالنسبة للآخرين كلّهم مكان محرّم ومهلك. وفي كلّ عام يقيمون في أهاراكي احتفالاً، وفي أثناء ذلك على وجه الخصوص، يمكن للمشاركين فيه أن يروا هذا كلّه ويسمعوه. وفي هذا الاحتفال يصيد غلمان الجمنازيوم وشبّانه وهم عراة وأجسادهم مدهونة بالزيت ثوراً ويسوقونه إلى الكهف مسرعين؛ وهناك يطلقون الثور الذي ما إن يتقدّم إلى الأمام قليلاً حتّى يسقط مختنقاً.

45- وعلى بعد 30 مرحلة من نيسّا (بعد أن تتجاوز تمولوس وجبل ميسوجيدا)، إلى الجنوب منها يقع مكان يدعى ليمون[33] يأتي إليه النيسيون وسكّان الضواحي ليحتفلوا معاً بالعيد. وغير بعيد عن هذا المكان يوجد مدخل كهف مكرّس للإلهين نفسيهما، ويقولون إن الكهف يمتدّ تحت الأرض حتّى أهاراكي. ويظنّون أن هذا المرج هو المرج الذي عناه هوميروس بقوله:

في المرج الآسوسي الذهبي...

(*الإلياذا* II، 461)

ويشيرون في غضون ذلك إلى معبد مكرّس لبطلين: كايسترس، والمدعو آسيوس، كما يشيرون أيضاً إلى كايستروس الذي يجري على مقربة.

46- ويروون عن ثلاثة أخوة: أثيمبروس، وأثيمبرادس، وهيدريليس، الذين جاؤوا من لاكيديمون وأسّسوا مدناً حملت أسماءهم نفسها، ولكن بما أنّه تبيّن فيما بعد أن عدد السكّان في هذه المدن لا يكفي، لذلك وحّدوا سكّانها وأسّسوا مدينة واحدة هي نيسّا. ولا يزال سكّان نيسّا حتّى يومنا هذا يعدّون أثيمبروس مؤسّس مدينتهم.

47- وتقع في ضواحي نيسّا على الجانب الآخر من مياندرس، قرى مهمّة مثل كوسكينيا، وأورفوسيا؛ وتقع على هذا الجانب منه: بريولا، وماستاورا، وأهاراكي؛ وإلى الأعلى من المدينة، على الجبل، تقع أروما (يتقلّص حرف الأوميغا في هذه الكلمة إلى أوميكرون)[34]؛ ومن هنا يخرج النبيذ الميسوجيدي الفاخر: الأرومي.

48- ومن أشهر الشخصيات التي أنجبتها نيسّا، الفيلسوف الرواقي أبوللونيوس الذي يعدّ أفضل تلاميذ بانيسيوس؛ ومينيكراتوس تلميذ أريستارخ، وابنه أريستوديموس الذي قيّض لي أن أستمع إلى فصل كامل من محاضراته في نيسّا عندما كان قد غدا شيخاً مسنّاً، بينما كنت أنا لا أزال في مقتبل العمر؛ ومنهم أيضاً سوستراتوس شقيق أريستوديموس، وأريستوديموس آخر هو ابن عمّ أريستوديموس الأوّل مربّي بومبييوس الأكبر، وكان هؤلاء من كبار علماء اللغة. وفيما يخصّ معلمي أنا فقد علّم البلاغة أيضاً، وكانت له فيها مدرستان: واحدة في رودوس والأخرى في مدينته الأمّ؛ وكان يقرأ محاضرات صباحية في علم البلاغة، ومسائية في علم اللغة. وعلى أيّ حال اقتصرت محاضراته في روما التي كان يعلّم بومبييوس فيها، على علم اللغة فقط.

الفصل الثاني

1- إنّ المناطق الواقعة وراء مياندرس، والتي بقي لي أن أصفها، هي كلّها مناطق كارية، لأنّ الليديين لم يختلطوا مع الكاريين هنا؛ ولذلك شغل هؤلاء وحدهم هذه البلاد كلّها ما عدا الشطر الساحلي الذي استولى عليه الميلتوسيون والميسيسيون. ويبدأ الساحل هنا بالمنطقة الساحلية الواقعة قبالة رودوس، وينتهي ببوسيديوس الميلتوسيين؛ وتقع في أعماق البلاد أطراف طوروس التي تمتدّ حتّى نهر مياندرس. ويقولون إن بداية طوروس تشكلها جبال تعلو فوق ما يسمّى الجزر الخيليدونية التي تقع في شريط حدودي أمام بامفيليا وليكيا؛ فمن هنا يبدأ ارتفاع طوروس نحو الأعالي. ولكنّ حقيقة الأمر هي أنّ سلسلة جبال طوروس تفصل ليكيا كلّها نحو الأجزاء الخارجية ونحو الجهة الجنوبية من البلاد الكيبيرية حتّى المنطقة الواقعة قبالة رودوس. ومن هنا تواصل السلسلة الجبلية امتدادها، لكنّها أكثر انخفاضاً بكثير، ولا تعدّ جزءاً من طوروس؛ ولا تقسم الأرض هنا إلى أرض تقع هذا الجانب من طوروس وأخرى تقع على ذلك الجانب منه، لأنّ المرتفعات والوديان تنتشر في هذه البلاد كلّها بالطول والعرض انتشاراً متماثلاً، وهي لا تشبه الحواجز في شيء، ويبلغ امتداد الطريق الدائرية كلّها على طول السواحل، بما فيها التواءات الخلجان 4900 مرحلة، أمّا الطريق التي تلتفّ حول المنطقة الساحلية الواقعة قبالة رودوس فقط، فيبلغ امتدادها 1500 مرحلة تقريباً.

2- وتبدأ المنطقة الساحلية الواقعة قبالة رودوس من ديدالا ، وهو موقع في منطقة رودوس، وتنتهي عند الجبل الذي يدعى جبل فينيكس الذي بدوره يقع في منطقة رودوس. وإلى الأمام تقع جزيرة إيليوسا على بعد 120 مرحلة من رودوس. وإذا أبحرت من ديدالا غرباً على خطّ مباشر مع ساحل كيليكيا وبامفليا وليكيا ففي الفاصل يقع خليج يدعى غلاوكوس فيه موانئ جيّدة؛ ثمّ تأتي أرتيميسوس، وهي رأس بحرية وحرم مقدّس؛ وبعدها أرض مقدّسة مكرّسة للاتونا؛ وفوق البحر بستين مرحلة تقوم مدينة كاليندا؛ ونصل أخيراً إلى كاونوس التي يجري على مقربة منها نهر عميق هو نهر كاليبوس الذي تستطيع أن تدخل فيه السفن، ويقع بينهما بيسيلوس.

3- وفي كاونوس ترسانات لإصلاح السفن وميناء. وفوق المدينة على مرتفع تقع قلعة إيمبروس. ومع أن البلاد المحيطة تتميّز بالخصوبة، إلاّ أن جميعهم يقرّ بأنّ طقس المدينة غير صحّي صيفاً، وكذلك في الخريف بسبب الحرّ الشديد ووفرة الثمار. ولذلك صمّت الآذان من سماع طُرَف من نمط طرفة عازف القيثارة ستراتونيك الذي صاح إذ رأى أنّ سكّان كاونوس يتميّزون بشحوب خاص مخضرّ اللون: «هذا هو الشحوب الذي عناه هوميروس بقوله:

أبناء البشر يشبهون ورق شجر البلوط».

(*الإلياذا* VI، 146)

وحينما أخذوا يلومونه لأنه يهزأ بالمدينة كأنه يهزأ بمريض أجابهم ستراتونيك قائلاً: «أيعقل أن أجرؤ على أن أدعو المدينة التي حتّى الأموات فيها يتجوّلون مدينة مريضة؟». ومرّة أعلن الكاوتوسيون انفصالهم عن الرودوسيين، لكنّ قراراً اتخذته لجنة تحكيم رومانية ألزمتهم بالخضوع من جديد. وهناك خطبة لمولون «ضدّ الكاونوسيين». ويقال إنّ لغتهم لغة مشتركة مع الكاريين، وإنهم جاؤوا من جزيرة كريت ويعيشون بحسب عاداتهم.

4- بعد كاونوس تأتي مدينة صغيرة، هي مدينة فيسك التي فيها ميناء وأرض مقدّسة مكرّسة للاتونا؛ ثمّ يليها لوريما، وهو ساحل صخريّ وأعلى جبل في هذه البلاد. وعلى قمّة هذا الجبل يقع فينيكس، وهو حصن يحمل اسم الجبل نفسه. وأمام الجبل، على بعد 4 مراحل منه، تقع جزيرة إيليوسا التي يبلغ امتداد محيطها 8 مراحل تقريباً.

5- وتقع مدينة الرودوسيين في الطرف الشرقي لرودوس؛ أمّا فيما يخصّ الموانئ والطرق والأسوار وما شابه من المنشآت الأخرى، فإن هذه المدينة ملائمة لها إلى درجة أنني لا أستطيع أن أسمّي أي مدينة أخرى تناظرها في هذا أو يمكن أن تكون أفضل منها بعض الشيء. كما يثير الدهشة أيضاً تنظيم مدينة الرودوسيين القائم على القوانين، وذلك الاهتمام الذي يولونه لشؤون الدولة ومؤسّساتها على وجه العموم، وللأسطول على وجه الخصوص، فبفضله سادوا على البحر زمناً طويلاً، وقضوا على أعمال القرصنة وصاروا إلى «أصدقاء» للرومان وكلّ الملوك الموالين للرومان والإغريق. ونتيجة لهذا بقيت رودوس مستقلّة، بل زينتها أيضاً كثرة من التقدمات التي كرّس أكثرها لمعبد ديونيسيوس والجمنازيوم، وبعض الأماكن الأخرى أحياناً. وأفضل التقدمات التي كرّست هنا، تمثال مهول لهيليوس قال عنه الشّاعر[1] اليانبي:

هاريس، الرجل الليندسي بنى لي تمثالاً

ارتفاعه سبعة أضعاف العشرة أذرع.

لكنّ هذا التمثال يستلقي الآن على الأرض، فقد أطاحت به هزّة أرضية وكسرته عند الركبتين؛ ونزولاً عند إرادة الموحى لم يعيدوا بناءه من جديد. ويعدّ هذا التمثال التقدمة الأفضل بين التقدّمات الأخرى كلّها (وعلى أيّ حال فإن هذا التمثال يعدّ باعتراف جميعهم إحدى عجائب الدنيا السبع)؛ تليه لوحات بروتوجينوس، خاصة إياليس والساتير الواقف عند عمود يجلس على رأسه حجل. وما إن عرضت اللوحة حتّى نظر الشعب إلى طائر الحجل بدهشة صادقة كأنه يرى حجلاً حيّاً ولم يعجب إلاّ به متجاهلاً الساتير، مع أنّ الرسام أبدع في رسم هذه اللوحة الأخيرة أيضاً. وأثار دهشة الناس أكثر، أولئك الذين كانوا يربّون طيور الحجل وجاؤوا بها إلى المكان ووضعوها أمام اللوحة: لقد أخذت الطيور تطلق صيحات تنادي بها الحجل المرسوم على اللوحة، فاجتمع في المكان حشد كبير من الناس. ولمّا رأى بروتوجينوس أنّ لوحته الرئيسة تحوّلت إلى لوحة من الدرجة الثانية، جاء إلى القائمين على الحرم وطلب منهم السماح له أن يزيل صورة الطير، وهو ما فعله. ويولي الرودوسيون اهتماماً لمصالح الشعب، مع أنّ نظام الحكم عندهم ليس ديمقراطياً، إلاّ أنهم يعملون مع ذلك على دعم الشرائح الفقيرة. فيقدمون الأقماح للشعب، أو يمدّ الأثرياء يد العون للفقراء، على عادة الأسلاف؛ وعندهم التزامات اجتماعية معروفة تقضي بتقديم المؤن، فيحصل الفقير

على قوته، وتدرأ المدينة بذلك عن نفسها النقص إلى من هم ذوو نفع، خاصة لتعبئة قوات الأسطول. أمّا المحطات الشراعية، فقد كان بعضها مغلقاً يمنع الشعب من دخوله؛ وكان الموت عقاب كلّ من يحاول رصد أيّ من هذه المحطات أو التسلل إلى داخلها. فهنا، كما في ماساليا وكيزيك، كلّ ماله علاقة بالمعماريين، وتصنيع الأسلحة، ومخازن الأسلحة وما شابه، هو محلّ عناية فائقة لم يعرف لها مثيل في أيّ مكان آخر.

6- ومثلهم مثل سكّان غاليكارناس، وكينديس، وكوسوس ينتمي الرودوسيون إلى الدوريين أيضاً. فبعد وفاة كودر بقي فريق من الدوريين الذين أسّسوا ميغارا ليقيم هناك، وشارك آخرون مع الآرغوسي ألثيمين في حملة استيطان كريت، وانتشر الفريق الثالث منهم في رودوس والمدن المذكورة هنا. لكنّ هذه الأحداث وقعت بعد الأحداث التي ذكرها هوميروس؛ فكيندس وغاليكارناس لم تكونا قد ظهرتا بعد إلى الوجود، مع أن رودوس وكوسوس كانتا موجودتين، لكنّ سكّانهما كانوا من الهيراقليين. فعندما بلغ تليبوليموس سنّ الرشد:

سارع كالأحمق إلى قتل ليكيمنوس الشيخ الأشيب

عمّ أبيه الذي كان يجلّه...

وجمع السفن على عجل، وحشد جحافل عظيمة

وهرب متخفياً...

(*الإلياذا* II، 662)

ثمّ يضيف الشّاعر بعد ذلك:

ووصل التائه أخيراً إلى رودوس...

واستقرّ الوافدون هناك ثلاث قبائل.

ودعا مدن ذلك الزمن:

ليندس، وييليس، وكاميروس ذات الحجارة البيضاء،

(*الإلياذا* II، 656)

لأنّ مدينة الرودوسيين لم تكن قد تأسّست بعد. وعلى هذا النحو فإن هوميروس لا يأتي على ذكر الدوريين بالاسم في أيّ مكان هنا، بيد أنه على أيّ حال، يشير إلى الإيوليين والبيوتيين، إذا صحّ أنّ هرقل وليكيمنوس استوطنا هناك. ولكن إذا كان

تليبوليموس قد جاء من آرغوس وتيرينث، كما يزعم آخرون، فإن الاستيطان حتّى في هذه الحال لم يكن دورياً، لأنه خرج قبل عودة الهيراقليين. وعن سكّان كوسوس يقول هوميروس:

قاد الجموع قائدان، ثيديبوس، وأنتيفوس المحارب

وأنجب الاثنين تسالوس، الابن الملكي لهرقل؛

(الإلياذا II، 678)

ولا تشير هذه الأسماء إلى منشأ دوريّ بقدر ما تشير إلى منشأ إيولي.

7- في الأزمنة الماضية كانت رودوس تسمّى أوفيوسا وستاديا، ثمّ سمّيت تيلخينيدا نسبة إلى التيلخينيين الذين استوطنوها. ويرى بعضهم في هؤلاء الأخيرين سحرة ومشعوذين ملؤوا ستيكس[2] بمياه مخلوطة بالكبريت[3] لكي يميتوا الحيوانات والنباتات؛ بينما يرى آخرون أنهم كانوا على الضدّ من هذا، ولكن بما أنهم كانوا حرفيين ذوي مهارات عالية، فقد أثاروا حسد الآخرين من ذوي المهن نفسها، ولذلك نالوا هذه الشهرة السيّئة. وفي الأوّل جاء التيلخينيون من كريت إلى قبرص، ثمّ إلى رودوس؛ وكانوا أوّل من عدّن الحديد والنحاس، فمنجل كرونوس من صناعتهم. وأنا كنت قد تحدّثت في عرضي السابق[4] عن التيلخينيين، لكنّ العدد الكبير من الأساطير التي تتحدّث عنهم، يرغمني على أن أُعيد وصفهم من جديد لكي أغطّي النقص فيه.

8- فالأساطير تقول، إنّ الهليادس سكنوا الجزيرة بعد التيلخينيين؛ وكان لأحدهم - كركاثوس - وزوجته كيديبا أبناء أسّسوا مدناً حملت أسماءَهم:

ليندس، وييليس، وكاميروس ذات الحجارة البيضاء.

(الإلياذا II، 656)

لكنّ آخرين يرون أنّ تليبوليموس هو الذي أسّس هذه المدن وأطلق عليها أسماء بعض بنات دانائي.

9- لقد بنيت المدينة الحديثة في زمن حرب البيلوبونيز، وقد بناها المعماري نفسه الذي بنى بيريبا، على حدّ قولهم. بيد أنّ بيريبا لم تعد موجودة، لأنّ اللاكيديمونيين تسبّبوا لها بأذى كبير بعد أن دمّروا أسوارها ثمّ جاء القائد الروماني سولاّ وهدم المدينة كلّها.

10- كما يروى عن الرودوسيين ما يلي: لم يحققوا نجاحاً في البحر منذ زمن تأسيس المدينة الحديثة فقط، بل قبل سنين طويلة من تأسيس الألعاب الأوليمبية كانوا قد أبحروا بعيداً عن وطنهم الأم لكي يضمنوا أمن ناسهم. فمنذ هذا الوقت أبحروا حتّى إيبيريا وأسّسوا هناك رودوس[5] التي استولى عليها الماساليون؛ ثمّ أسّسوا في بلاد الأوبيكيين مدينة بارثينوبا، وفي بلاد الدافنيين أسّسوا مع الكوسوسيين مدينة إيلبي. وبحسب بعض المؤلّفين أنهم استوطنوا الجزر الهيمنيسية بعد عودتهم من حرب طروادا؛ ويقول تيميوس إن أكبرها هي الأكبر بعد الجزر السبع: سردينيا، صقليا، قبرص، كريت، إيبيوس، كيرن، وليسبوس؛ بيد أنّ هذا ليس صحيحاً، لأنّ هناك جزراً أكبر بكثير. فيقال، إن الفينيقيين يدعون «الهيمنيتيين»[6] بلياريديين، ولذلك دعيت الجزر الهيمنيسية جزر البليار. وعاش فريق من الرودوسيين في ضواحي سيباريس في هونيا. ويبدو على أغلب الظنّ أن هوميروس أيضاً يشهد على ازدهار الرودوسيين منذ أقدم الأزمنة، مباشرة بعد تأسيس المدن الثلاث:

هناك سكن الوافدون ثلاث قبائل، وكانوا

أحبّاء زيوس، ملك الآلهة، وأب الناس:

وهبهم الأوليمبي من عليائه ثروات لا تفنى.

(*الإلياذة* II، 668)

ولكنّ كتّاباً آخرون نسبوا هذه الأبيات إلى ميدان الأسطورة وقالوا: إنه لدى مولد أثينا من رأس زيوس هطل على الجزيرة بحسب بينداروس[7]، مطر ذهبي. ويبلغ امتداد محيط الجزيرة 920 مرحلة.

11- إذا أبحرت من مدينة الرودوسيين تاركاً الجزيرة على يمينك، فإن بيندس هي التي تظهر لك أوّلاً، وقد بنيت هذه المدينة على جبل، وتمتدّ بعيداً نحو الجنوب باتجاه الإسكندرية[8]. وفي ليندس حرم شهير لأثينا الليندية أسّسته بنات دانائي. وفي الأزمنة السابقة كان الليديون يتمتّعون بإدارة ذاتية تدير شؤونهم، مثلهم في هذا مثل الكاميروسيين والإياليسيين، لكنّهم اتّحدوا مع رودوس فيما بعد. وليندس هي مسقط رأس كليوبولس أحد الحكماء السبعة.

12- وبعد ليندس تأتي منطقتا إيكسيا ومناسيريس. ثمّ يأتي أتابيرس، وهو أعلى جبل بين الجبال المحلّية، والجبل مكرّس لزيوس الأتابيرسي؛ وبعد ذلك تأتي كاميروس، ثمّ قرية إياليس التي يقع فوقها أكروبوليس يسمّى أوهيروما؛ وتأتي بعده

مدينة الرودوسيين على مسافة تقارب 80 مرحلة. ويقع بينهما فوانتيس: موقع ما يشبه الرأس البحرية؛ وأمام فوانتيس تقع السبورادا حول خالكيا التي ذكرتها من قبل[9].

13- لقد أنجبت رودوس كثيراً من الشخصيات التي تستحقّ الذكر: قادة عسكريين ورياضيين؛ وكان منهم أسلاف الفيلسوف بانيسيوس؛ ونذكر من رجال الدولة والخطباء والفلاسفة بانيسيوس نفسه، وستراتوكلس وأندرونيكوس المشّائي وليونيد الرواقي؛ ومن الذين عاشوا قبل ذلك براكسيفانوس وهيرونيموس ويفديموس. وشغل بوسيدونيوس مناصب حكومية في رودوس، وعلّم فيها الفلسفة، مع أنه كان أصلاً من أفاميا السورية، مثله مثل أبوللونيوس مالاكوس ومولون اللذين كانا من ألاباندا، وهما من تلاميذ مينيكلس. وكان أبوللونيوس قد وصل إلى هناك قبل مولون؛ وبعد ذلك بزمن طويل جاء مولون، وهذا ما جعل أبوللونيوس يقول له: «Molōn متأخراً»[10]، بدلاً من Eltōn. كما كان بيساندرس الشاعر، مؤلِّف «الهيراقليا»، رودوسياً بدوره، وكذلك العالم اللغوي سيمّوس، وفي زمني هذا، أريستوكلس. أمّا فيما يخصّ ديونيسيوس التراقي وأبوللونيوس مؤلّف «الأرغونيكا»، فعلى الرغم من أنهما كانا من الإسكندرية، إلاّ أنهما دعيا رودوسيين. وهأنذا قلت عن رودوس ما يكفي.

14- وبعد ذلك يشكّل شطر من الساحل الكاري بعد رودوس بدءاً من إيليونت ولوريما، ما يشبه المنحنى نحو الشمال، ويسير الإبحار بعده حتّى البروبونتيدا على خطّ مباشر يبدو كأنه دائرة طول يبلغ امتدادها قرابة 5000 مرحلة أو أقلّ بقليل. وعلى امتداد هذا الخطّ يقع ما تبقّى من كاريا ومناطق الإيونيين والإيوليين ومنطقة طروادا والأماكن المحيطة بكيزيك وبيزنطا. وبعد لوريما يأتي كينوس- سيما[11] أوّلاً، ثمّ جزيرة سيما.

15- ونصل بعد ذلك إلى كيندس وميناتيها (إحداهما يمكن أن تغلق، وهي معدّة لفرازات الحبوب)، ومحطتها الشراعية التي تتّسع 20 سفينة. وتقع أمام كيندس جزيرة يقارب امتداد محيطها 7 مراحل؛ وهذه الجزيرة مرتفعة ولها شكل المسرح، وهي تتّصل بالبرّ عبر جسور تجعل من كيندس مدينة مزدوجة بمعنى ما، لأنّ العدد الأكبر من سكّانها يعيش على الجزيرة التي يحميها الميناءان. وقبالتها في عرض البحر تقع نيسيروس. ومن الشخصيات الفذّة التي أنجبتها كيندس، عالم الرياضيات إفدوكس الذي كان واحداً من أقرب تلاميذ أفلاطون إلى قلبه، والمشّائي

آغاثارهيدس المؤرّخ؛ ومنهم في زمننا هذا ثيوبومبوس صديق قيصر الإلهي والرجل الواسع النفوذ؛ وابنه إرتيميدور. كما خرج من هنا أيضاً كتيسيوس طبيب أرتاكسيراكس ومؤلّف «تاريخ آشور» و«تاريخ فارس». - ثمّ تأتي بعد كيندس مدينتان صغيرتان، هما كيرام وبارغاس الواقعتان فوق البحر.

16- وبعدهما تأتي غاليكارناس، وهي المقرّ الملكي للحكّام الكاريين، وكانت هذه تدعى من قبل زيفيرا. وهنا يقع ضريح ماوسولوس[12] الذي يعدّ إحدى عجائب الدنيا السبع، والتمثال الذي أقامته أرطميسيا على شرف زوجها؛ كما يقع هنا أيضاً ينبوع سالماكيدا الذي ذاع له صيت سيّئ، إذ زعموا أنّ من يشرب من مائه يصبح مخنّثاً، فعادة ما يتهم الهواء أو الماء بالتسبب بتخنّث الناس؛ ولكنّ أسباب التخنّث ليست هنا، بل على أغلب الظنّ في الثراء، ونمط العيش المستهتر. - وفي غاليكارناس أكروبوليس؛ وتقع أمام المدينة جزيرة أركونّيس. ومن بين الذين أسّسوا المدينة أنفيس والتريزينيون، ومن هناك يتحدّر المؤرّخ هيرودوت الذي دعوه فيما بعد فورياً، لأنه ساهم في استعمار فوري؛ والشّاعر هيراقليط صديق كاليماخ، وفي أيامنا هذه خرج من هناك أيضاً المؤرّخ ديونيسيوس.

17- وقد أُضعفت قوّة هذه المدينة أيضاً، بعد أن استولى الإسكندر عليها عنوة. وكان للملك الكاري هيكاتومنوس ثلاثة أبناء هم: ماوسولوس، وهيدرييوس، وبيكسوداروس؛ وابنتان؛ تزوّج الكبرى منهما أرطميسيا شقيقها الأكبر ماوسولوس، وتزوج الابن الثاني، هيدرييوس أخته الصغرى آدا. وغدا ماوسولوس ملكاً؛ ولمّا مات ولم يترك ذرية، اعتلت عرشه زوجته التي بنت له ضريحه الشهير. وبعد أن توفّت أرطميسيا بسبب إصابتها بالسلّ الرئوي حزناً على زوجها، استوى هيدرييوس على العرش. وبعد وفاته ورثت العرش زوجته آدا، لكنّ بيكسوداروس، آخر أبناء هيكاتومنوس طردها. ولمّا كان هذا قد مال نحو الفرس، فقد دعا الوالي الفارسي لمشاركته السلطة على غاليكارناس. وبعد أن توفى بيكسوداروس استولى الوالي الفارسي على غاليكارناس. وحينما اقترب الإسكندر من المدينة صمد الوالي للحصار. وكان هذا قد تزوّج آدا ابنة بيكسوداروس وأثنييدس القبدوقية. ولكنّ آدا ابنة هيكاتومنوس التي عزلها بيكسوداروس أخذت تتوسل الإسكندر، ونجحت في إقناعه بأن يعيد لها العرش الذي اغتصب منها. وتعهدت له بأن تساعده على استرداد المدن التي انفصلت عنه، لأنّ حكّامها هم من أقاربها، كما قالت. كما أعطت

الإسكندر مدينة أليندا التي كانت تقيم فيها عندئذٍ. فقبل الإسكندر عرض آدا وأعلنها ملكة. وبعد أن سقطت المدينة كلها، ما عدا الأكروبوليس، (وكان في المدينة أكروبوليسان)، ترك لآدا أن تنهي الحصار. وبعد وقت قصير سقط الأكروبوليسان، وقد أدير الحصار في غضون ذلك بحقد وقسوة.

18- تلي ذلك مباشرة رأس تيرميروس البحرية التي يشغلها الميندسيون وتقع قبالتها رأس كوسوس: سكانداروس على بعد 40 مرحلة عن البرّ. وإلى الأعلى من رأس كوسوس يقع مكان يدعى تيرميروس.

19- لقد كانت مدينة الكوسوسيين تدعى قديماً أستيباليا، وكانت تقع على البحر أيضاً، ولكن في مكان آخر. وبسبب حركة العصيان التي حدثت فيما بعد، نزح سكّانها وسكنوا في المدينة الجديدة قرب سكانداروس وغيروا اسمها إلى كوسوس، وهو اسم الجزيرة نفسه. والحقيقة أن المدينة ليست كبيرة، لكنّها مبنية بناء أجمل من بناء المدن الأخرى كلّها، ومظهرها يثير إعجاب كلّ مبحر إليها من عرض البحر. ويبلغ حجم الجزيرة 550 مرحلة. والغلال وفيرة في كلّ مكان على الجزيرة، ومثلها مثل كيوس وليسبوس، تنتج كوسوس أفخر أنواع النبيذ أيضاً. وإلى الجنوب منها تقع رأس لاكيتيروس البحرية، ومن هناك إلى نيسيروس 60 مرحلة (وغير بعيد عن لاكيتيروس يقع مكان يدعى غاليسارنا)، وتقع غربيها رأس دريكان البحرية وقرية تدعى ستوماليمنا. وتقع دريكان على ما يقارب 200 مرحلة عن المدينة، أمّا طول الطريق إلى لاكيتيروس فيزداد 35 مرحلة أخرى. ويقع في ضواحي المدينة حرم أسكليبوس، وهو معبد شهير جدّاً ومليء بالتقدمات التي من بينها لوحة أنتيغون التي رسمها أبيلليس. كما كانت هناك أيضاً لوحة أفروديت أناديومينا[13]، التي قدّمت الآن تقدمة لقيصر الإلهي في روما، لأنّ أغسطس كرّس لوالده صورة جدّته الأولى. ويقولون إن الإتاوات التي كانت مفروضة على الكوسوسيين قلّصت بمقدار 100 تالانت لقاء هذه اللوحة. ويروى أنّ هيبوقراط تعلّم مداواة المرضى بشكل رئيس على أساس الألواح التكريسية التي كانت موجودة في المعبد، فقد كانت تلك الألواح تحمل قصصاً سريرية عن مداواة كلّ حالة. ويعدّ هيبوقراط من أشهر مواطني جزيرة كوسوس، ومثله أيضاً الطبيب سيموس، والشّاعر الناقد فيليتوس، وفي زمننا هذا نيكوس الذي كان تيراناً في كوسوس، وأريستوس تلميذ المشائي وخليفته[14]؛ ومن كوسوس أيضاً عازف القيثارة الشهير ثيومنيستوس الخصم السياسي لنيكوس.

20- وعلـى سـاحل القـارّة قـرب مينـدس تقـع رأسـان بحريتـان همـا أسـتيباليا، وزيفيريس. ثمّ تأتي بعدهما مباشرة مينـدس وميناؤهـا، تليها بـارغيليس الـتي تعدّ مدينـة أيضـاً؛ وفي الفاصل بينها تقـع مينـاء كاريانـدا وجزيـرة تحمـل الاسـم عينـه يعيش عليها الكاريانديون. وإلى هنا ينتمي المؤرّخ القديم سـكيلاك. وغير بعيـد عن بـارغيليس يقـع حرم أرطميس كينديادا الذي تؤكّد الخرافة أن المطر لا يرويه قط. وفي زمن مـا كـان يقع هنا مكان يدعى كينديا. وبارغيليس هـي مسـقط رأس الإبيقـوري الشـهير بروتـارخ معلّم ديميتري، بحسب مؤلّف لاكونس.

21- وتـأتي بعـد ذلـك إيـاس الواقعـة علـى جزيـرة تتـاخم الـبرّ. وللمدينـة مينـاء يسـتخرج سـكّانها القسـم الأعظـم مـن غـذائهم مـن البحـر، لأنّ في البحـر كـثير مـن الأسماك، أمّا التربة فعقيمة لا تثمر. وقد شـاعت عـن إيـاس قصـص بهـذا المعنـى: عنـدما كان يعزف يوماً هنـاك عـازف قيثـارة، كـان كلّهـم يصـغي إلى عزفـه باهتمـام، إلى أن قرع الجرس الذي يعلن بدء بيع الأسماك؛ عندئذٍ ترك جميعهم العازف ومضـوا إلى سـوق السمك، ما عدا شخصاً واحداً تبيّن أنـه أصـمّ تمامـاً. عندئـذٍ اقـترب العـازف منـه وقـال: «أشكرك الشكر كلّه أيها السيّد اللطيف المتأدّب على الشرف الذي منحته لي بحبك للموسيقا؛ فالآخرون كلّهم ما إن سمعوا الجـرس حتّـى ذهبـوا». - فأجابـه الأصـمّ: «مـاذا تقول؟ هل قرعوا الجرس حقّاً؟». وعنـدما أجـاب العـازف بالإيجـاب، نهـض الأصـمّ وقـال: «وداعاً!»، ومضى. - وإياس هي مسقط رأس الدياليكتيكي الشهير ديودوروس الملّقب كرونوس[15]، مع أنه لقّب في أوّل الأمـر بهـذا اللقـب خطـأ، لأنّ معلّمـه أبوللونيـوس هـو الذي كـان يـدعى كرونـوس، لكـنّهم حوّلـوا اللقـب إليـه، لأنّ كرونـوس الحقيقـي لم يكن شهيراً.

22- بعد إياس تـأتي بوسـيدوس الميلتوسـيين. وتقـوم في أعمـاق الـبلاد ثـلاث مـدن كبيرة: ميلاسـا، ستراتونيكيـا، وألابـاندا. أمّا الأُخـر فليسـت سـوى مـدن تابعـة لهـذه أو للمـدن السـاحلية، كـأميزون، وهيراقلييـا، ويفـروم، وخـالكيتون ولـذلك سـأتحدّث عنها أقلّ.

23- تقع ميلاسـا في سهل شديد الخصوبة. ويرتفع فوق السهل ارتفاعاً حاداً جبـل فيه مقلع نوع رائع من أنواع حجر المرمر الأبيض. ويحصل السكّان على منفعة غير قليلة من هذا المقلـع لأنّ فيـه كـثيراً مـن الحجـارة الصـالحة للبنـاء، خاصـة بنـاء المعابـد وسـوى ذلك من الأبنية العامّة، أضـف إلى ذلـك أنـه يقـع علـى مقربـة. ولـذلك فـإن المدينـة مزدانـة

بشكل ملفت (زينتها تفوق زينة أيّ مدينة أخرى): بالأروقة، والمعابد، وما شابه. ولا يمكن إلاّ أن تثير استغرابنا لا عقلانية أولئك الناس الذي بنوا مدينتهم على سفح صخرة شاقولية معلّقة فوقها. ويقال، إنّ أحد حكّام المنطقة عبّر فعلاً عن استغرابه ذلك فقال: «إذا كان باني هذه المدينة لم يَخَفْ، أيعقل أنه لم يخجل؟». وعند الميلاسيين معبدان لزيوس: أحدهما يدعى زيوس أوسوغو؛ والآخر زيوس اللابراندين. ويقوم الأوّل في المدينة، أمّا لابراندا فهي قرية بعيدة عن المدينة تقوم على جبل قريب من المعبر الذي يقود من ألاباندا إلى ميلاسا. وفي لابراندا معبد قديم وتمثال خشبي لزيوس ستراتيوس يتعبّده سكّان الضواحي والميلاسيّون. وتمتدّ من المعبد إلى المدينة طريق مرصوفة يبلغ طولها 60 مرحلة تقريباً، وتدعى طريقاً مقدّسة؛ وتسير على هذه الطريق المواكب الاحتفالية المقدّسة. ويشغل كبار الوجهاء هنا المناصب الكهنوتية مدى الحياة. ويعود هذان المعبدان للمدينة نفسها؛ أمّا المعبد الثالث، معبد زيوس الكاريّ، فيعدّ حرماً مشتركاً للكاريين كلّهم؛ وللأخوة الليدين والمسيسيين نصيب فيه. ويروى أنّ ميلاسّا كانت في الزمن القديم قرية بسيطة وموطناً ومقرّ إقامة للملوك الكارين من سلالة هيكاتومنوس. وأقرب نقاط المدينة إلى البحر، عند فيسك التي تعدّ محطة شراعية للميلاسيين.

24- وفي زمننا هذا عاش في ميلاسّا أشخاص بارزون: الخطيبان والقائدان الشعبيان يوثيديموس وهيبرييوس. وكان يوثيديموس قد ورث عن أسلافه ثروة طائلة ومجداً ذائعاً؛ وأضاف هو إلى هذا كلّه فنّ الفصاحة، ولم يكن عظيماً في وطنه فقط، بل حظي باحترام كبير في آسيا كلها. أمّا هيبرييوس، فلم يترك له والده، كما كان يحب أن يكرر هو نفسه في مدرسته، سوى بغل لنقل الأخشاب وسائقاً له، وهذا ما أكّده أبناء مدينته أيضاً. ولمّا كان يحصل على قوّته بهذه الطريقة تحوّل في وقت قصير إلى تلميذ عند ديوتريفوس الأنطاكي؛ ثمّ عاد من هناك إلى مدينته الأم وشغل فيها وظيفة ناظر السوق. وبعد أن دار في هذه الدائرة لبعض الوقت، نجح في جمع ثروة صغيرة فالتفت إلى العمل الحكومي، ثمّ صار إلى واحد من خطباء مجلس الشعب المعروفين. وسرعان ما ارتقى شأنه ويوثيديموس لا يزال على قيد الحياة، وتحوّل بعد وفاة هذا الأخير إلى شخصية قوية جدّاً، ثمّ ما لبث أن غدا حاكم المدينة. ولكن لمّا كان يوثيديموس على قيد الحياة، كان تفوّقه عليه حاسماً، لأنه كان شخصاً قوياً وأكثر منفعة للمدينة؛ وحتى لو كان فيه شيء من تيران، فإن منافعه كانت تغفر له

هـذا. ولـذلك يحبّـذون قـول هيبريـيـوس الـذي أعلنـه في خاتمـة إحـدى خطبـه إلى الشـعب: «يايوثيـديموس، أنـت للمدينـة شـرّ لا بـدّ منـه، لأننـا لا نسـتطيع أن نتعـايش معـك، ولا نستطيع أن نعيش مـن دونـك!». والحقيقـة، هـي أنـه علـى الـرغم مـن أن هيبريـيـوس عـلا شأنه كثيراً، واشتهر كمواطن صالح وخطيب مفوّه، إلاّ أنـه هـزم في سياسـته المعاديـة للابينوس. فعندما جاء لابينوس على رأس قوّاته والقـوات البارثيـة المسـاندة لـه (وفي ذلـك الوقت كان البارثيون سادة آسيا)، خضع الآخرون كلّهم له (لأنه لم يكـن بـين أيـديهم أسلحة، فنحوا إلى السلام)، لكنّ زينـون اللاوديكـي وهيبريـيـوس، والاثنـان خطيبـان، رفضـا الانصـياع وحرّضـا مـدينتيهما علـى العصـيان. وعـلاوة علـى ذلـك أثـار هيبريـيـوس بواحـد مـن تعليقاتـه سـخط لابينـوس الشـاب الأحمـق السـريع الغضـب. فعنـدما أعلـن لابينـوس نفسـه إمبراطـوراً بارثيـاً قـال هيبريـيـوس: «حسـناً، وأنـا أيضـاً أعلـن نفسـي إمبراطوراً كارياً!». بعـد هـذا الإعـلان هـاجم لابينـوس المدينـة علـى رأس وحـدات مقاتلـة جنّدها من الرومان المقيمين في آسيا. لكنّه لم ينجح في إلقـاء القـبض علـى هيبريـيـوس، لأنه فرّ إلى رودوس، فنهب محتويات منزله الفخم؛ كما نهب المدينـة كلّهـا. وبعـد إبعـاد لابينوس من آسيا، عاد هيبريـيوس إلى ميلاسـا واستعاد وضعه السـابق في المدينـة، وأعـاد بناءها من جديد. وهذا هو وصفي لميلاسا.

25- أمّـا سـتراتونيكيا، فهـي قريـة للمقـدونيين، زيّنهـا الملـوك بأبنيـة ومنشـآت فخمـة. وفي منطقـة السـتراتونيكيين حرمـان: حـرم هيكـاتي الشـهير في لاغينـا، الـذي يجتمع فيه حشد كبير مـن النـاس كـلّ عـام للاحتفـال بالعيـد؛ وعلـى مقربـة مـن المدينـة يقع معبد زيوس كريساوريوس، وهو حـرم مشـترك للكـاريين كلّهـم، حيـث يجتمعـون لتقديم الأضاحي، وبحث شؤونهم العامّة. ويتألّف اتحادهم من القرى فقـط، وهـو يـدعى كريساوريس. ويحظـى الـذين يمثلـون أكثريـة القـرى بالأفضـلية عنـد التصـويت، كمـا سكّان كيرام على سبيل المثال. ويشـارك السـتراتونيكيون أيضـاً في هـذا الاتحـاد، مـع أنهـــم ليســـوا كـــاريي المنشـــأ، إنمـــا لأنهـــم يملكـــون قـــرى تـــدخل قـــوام الاتحـــاد الكريساوريسي. ومن هنا خرج الخطيـب الفـذّ مينيبـوس الـذي لقّـب كـاتوكـا، وعـاش في زمن آبائنا. وقد مدح سيتسيرون مينيبوس أكثر من أيّ خطيب آسيوي آخـر تسـنّى لـه أن يسمعه (على حدّ قوله في واحد من مؤلّفاته)[16]، وقارنـه مع كسينوكلس وغيره مـن الخطبـاء المعـروفين في زمنـه. - وثمّـة سـتراتونيكيا أخـرى تـدعى «سـتراتونيكيا طوروس»، وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة من الجبل.

26- وتقع ألاباندا عند سفوح هضبتين قريبة واحدتها من الأخرى حتّى يخيّل للناظر أنه يرى حماراً على ظهره حمولة. وكان أبوللونيوس مالاكوس قد قال في معرض سخريته من المدينة لهذا السبب، وبسبب كثرة العقارب في هذا المكان: إنها حمار نقل حمولته عقارب. لكنّ هذه الكائنات لا تسعى بكثرة في هذه المدينة وفي ميلاسا فقط، بل في كلّ المنطقة الواقعة بينهما. إن ألاباندا مدينة الذين يعيشون في بذخ وسكر؛ وفيها كثير من الفتيات العازفات على القيثارة. وهي مسقط رأس اثنين من ألمع الخطباء: مينيكلس (الذي ذكرته قبل قليل)[17]، وهيروكلس، إضافة إلى أبوللونيوس ومولون اللذين انتقلا للعيش في رودوس.

27- من الروايات الكثيرة التي شاعت عن الكاريين يتّفق على الرواية التي تقول، إن الكاريين كانوا تحت سلطة مينوس (كانوا يدعون عندئذٍ ليليغيس)، وكانوا يعيشون عندها في الجزر؛ ثمّ انتقلوا إلى البرّ فاستولوا على شطر كبير من الساحل والمناطق الداخلية من البلاد، إذ انتزعوها من أصحابها السابقين، الليليغيس والبيلاسيغيس بشكل رئيس. ولكنّ الإغريق الإيونيين والدوريين انتزعوا منهم جزءاً من هذه الأراضي. ومن قرائن ولعهم بالحرب، مقابض تروسهم والصور المحفورة عليها والريش الذي على خوذهم التي تدعى كلّها «كاريّة». وفي أقل تقدير يقول كريونت:

إلى هنا أدخلت يدك عبر

مقبض الترس الكاريّ

(مقطع 87، كروزيوس)

ويقول ألكييوس:

هازّاً الريش الكاري...

(مقطع 22، بيرغك)

28- وعندما يقول هوميروس:

ماسفليس قاد الكاريين الذين يتحدّثون اللهجة البربرية،

(الإلياذا II، 867)

فليس ثمّة أساس لكي نسأل لماذا لم يذكر سوى الكاريين «الذين يتحدّثون اللهجة البربرية»، مع أنه يعرف كثيراً من الشعوب البربرية، ولم يتحدّث عن البرابرة في أيّ

مكان. ولذلك ليس ثوكيديدس[18] محقاً عندما يزعم أنّ هوميروس يستخدم مصطلح «برابرة»، لأنّ «الهللينيين لم يكونوا قد انفردوا» بعد تحت اسم واحد نقيض. فقول ثوكيديدس «الهللينيون لم يكونوا قد انفردوا بعد»، يدحضده هوميروس نفسه إذ عدّه خطأ فقال:

عندما أفقد مثل هذا الرجل، أُقيم حزينة على الهالك،

الذي ملأ بمجده هلاّدا وآرغوس.

(الأوذيسا I، 344)

وقال في مكان آخر:

إذا أردت أن تزور آرغوس وتجوب هلاّدا.

(الأوذيسا XV، 80)

ولو لم يكن هؤلاء يدعون برابرة، فكيف كان يمكن تسميتهم «الذين يتحدّثون لهجة بربرية»؟ وعلى هذا النحو يكون كلّ من ثوكيديدس وأبوللودوروس اللغوي على خطأ؛ فالأخير أخطأ إذ زعم أن الهللينيين لم يستخدموا هذه التسمية العامّة إلاّ ككلمة قدح ضدّ الكاريين، وينسحب هذا خاصة على الإيونيين الذين كانوا يبغضون الكاريين بسبب العداوة والصدامات المسلّحة التي كانت تقع بين الطرفين دائماً، وبهذا المعنى كان على هوميروس أن يدعوهم برابرة. ولكنني أتساءل: لماذا إذن يدعوهم الشّاعر «بالذين يتحدّثون لهجة بربرية» ولم يدعهم برابرة مباشرة؟ يجيب أبوللودوروس قائلاً: «لأنّ صيغة الجمع لا تتوافق والميزان الشعري، ولذلك لم يدعهم هوميروس برابرة». ومع أنّ صيغة هذه الحالة الإعرابية[19] لا تتوافق والميزان الشعري، لكنّ صيغة الحالة الاسمية[20] لا تختلف عروضياً عن حالة كلمة «داردانيين»[21] في قوله:

أبناء طروادا والليكيون وأنتم الدردانيون أبطال عراك.

(الإلياذا XI، 286)

ومثلها أيضاً كلمة «طروادي» في قوله:

وهكذا هي الجياد الطروادية.

(الإلياذا V، 222)

وليس أبوللودوروس محقّاً في زعمه أن لغة الداريين لغة فظّة؛ فهي ليست غير فظة وحسب، بل فيها كثير من الكلمات الإغريقية، كما يزعم فيليب مؤلّف كتاب «تاريخ الكاريين». أمّا فيما يخصّني، فإني أظنّ أن كلمة «بربري» تشكلت بادئ ذي بدء محاكاة لنطق الذين ينطقون الكلمات بصعوبة، وقسوة، وفظاظة؛ كما ننطق نحن الآن كلمات مثل Battarizein، وTraulizein، وPsellízein[22]. فنحن نميل بطبيعتنا إلى رسم الأصوات بالكلمات المتماثلة النطق بسبب تجانسها. ولذلك تحتوي لغتنا على كثير من الكلمات التي تحاكي الأصوات مثل Kelaryzein، وKlangé، وPosóphos وBoé، وKrótos[23]، التي يستخدم أكثرها بمغزاه الدقيق. وعلى هذا النحو إذا كان كلّ الذين لديهم مثل هذه الفظاظة بالنطق يدعون برابرة، فهذا يعني أن لغات القبائل الغريبة كلّها، أي لغات غير الإغريق هي لغات فظة. ولذلك دعوهم برابرة بالمعنى الدقيق للكلمة، في أوّل الأمر من باب السخرية، وكأنّي بهم أرادوا أن يبرزوا نطقهم الفظ القاسي؛ ثمّ أسأنا نحن استخدام هذه الكلمة كتسمية مشتركة للقبيلة التي وضعناها نقيض الإغريق. وقد بيّن التواصل الطويل والعلاقات المتواصلة مع البرابرة أنّ هذا العيب ليس ناجماً البتّة عن فظاظة النطق أو عن أيّ عيب آخر في طبيعة أجهزة النطق، بل هو نتاج خاصيات اللغات نفسها. ففي لغتنا ظهر بالمقابل عيب ما، كأنه نطق على الطريقة البربرية، فعندما يتحدّث أحدهم بالإغريقية يقترف أخطاء بالنطق، أيّ ينطق الكلمات كما ينطقها البرابرة الذين بدؤوا لتوهم يتعلّمون الإغريقية ولا يعرفون بعد كيف يعبّرون بها عمّا يريدون قوله تعبيراً صحيحاً، وهذا ما يحصل لنا أيضاً عندما نتحدّث بلغاتهم. وهذا تحديداً ما حصل للكاريين، ففي ذلك الوقت لم تكن الشعوب الأخرى قد أقامت علاقات متواترة مع الإغريق بعد، كما لم تحاول اقتباس نمط العيش الإغريقي أو تتعلّم اللغة الإغريقية (ما عدا قلّة نادرة من الذين تواصلوا مصادفة مع بعض الإغريق)، أمّا الكاريون فعلى العكس، إذ كانوا يجوبون شتّى أرجاء اليونان بصفتهم مقاتلين مأجورين. وعلى هذا النحو، ونتيجة لحملاتهم على اليونان غالباً ما نجد في لغتهم كلمات بربرية، ثمّ اتسع انتشار هذه الأخيرة بعد أن سكن الكاريون مع الإغريق في الجزر؛ وحتى بعد أن طردوهم من الجزر إلى آسيا، لم يكن باستطاعتهم أن يعيشوا منفصلين عن الإغريق، أي عندما هاجر الإيونيون والدوريون إلى آسيا. وإلى الأصل نفسه ترجع كلمة Barbarizein، لأننا نستخدم هذا

التعبير عادة لمن لا يحسن التحدّث بالإغريقية، وليس لمن يتحدّث بالكارية. وعلى هذا النحو ينبغي أن نفهم تعبير «يتحدّث بالبربرية» وتعبير «الذين يتحدّثون البربرية» كتعبيرين يخصان أولئك الذين لا يحسنون التحدّث بالإغريقية. وعلى نمط تعبير Karizein[24]، دخل دليل اللغة الإغريقية بالمغزى المجازي مصطلح Soloikizein[25]؛ سواء اشتق من سول أو تشكّل بأيّ طريقة أخرى.

29- وعلى حدّ قول أرتيميدور، إذا ذهبت من فيسك الواقعة على الساحل قبالة رودوس إلى إفسس فإن المسافة حتّى لاغينا 850 مرحلة؛ ومن هنا إلى ألاباندا 250 مرحلة أخرى، وإلى ترالاّ 160 مرحلة. وتمتدّ الطريق إلى ترالاّ (بعد عبور مياندرس منتصف الرحلة تقريباً)، هناك حيث حدود كاريا. ومجمل المسافة من فيسك حتّى مياندرس على طريق إفسس 1180 مرحلة. وإذا عبرت بالاتجاه المعاكس على الطريق نفسها من نهر مياندرس حتّى ترالاّ عبر إيونيا مباشرة بالطول، فإن المسافة من النهر إلى ترالاّ 80 مرحلة، ثمّ إلى مغنيسيا 140 مرحلة، وحتى إفسس 120 مرحلة، وحتى سميرنا 320 مرحلة، وأخيراً حتّى ثوكيا وحدود إيونيا أقلّ من 200 مرحلة. وعلى هذا النحو يكون طول إيونيا على خطّ مستقيم، وفق أرتيميدور، قرابة 800 مرحلة. ولكن بما أنّ كلّ من يتّجه من إفسس شرقاً يختار طريقاً عامّة محدّدة، فقد اتّبع أرتيميدور هذه الطريق أيضاً: من إفسس إلى كارورا - حدود كاريا- باتجاه فريجيا عبر مغنيسيا، وترالاّ، ونيسا وأنطاكيا 740 مرحلة. ومن كارورا تبدأ فريجيا، وتسير الطريق عبر لاوديكا، وأفاميا، وميتروبوليس، وخيليدوني. وعلى هذا النحو تكون المسافة من كارورا إلى غولما، عند أوّل باروريا[26]، 920 مرحلة، وإلى تيريبوس الواقعة عند آخر باروريا، قرب ليكاونيا، عبر فيلوميلوس، أكثر من 500 مرحلة بقليل. ثمّ تأتي ليكاونيا، وطول الطريق إلى كوروباس عبر لاوديكا كاتاكيكاومينا[27] 840 مرحلة؛ ومن كوروباس إلى ليكاونيا حتّى غارساورا، وهي مدينة صغيرة في قبدوقيا تقع على حدودها، 120 مرحلة؛ ومن هنا إلى مازاكي، المدينة الرئيسة في قبدوقيا، عبر سواند وساداكورا 680 مرحلة؛ ومن هناك إلى نهر الفرات وحتى توميسا، وهي موقع في سوفينا، عبر مدينة صغيرة تدعى غيرفا 1440 مرحلة. والأماكن الواقعة على الطريق المباشرة مع هذه الأماكن وصولاً إلى الهند، هي نفسها لدى أرتيميدور وإيراتوسفين. ولكنّ بوليبيوس يرى أنه ينبغي أن نثق أكثر بمعطيات أرتيميدور عن

هذه الأماكن. فهو يبدأ من ساموساتا في كومّاجينا التي تقع عند معابر النهر، وعند زيغما؛ وهو يحسب المسافة حتّى ساموساتا من حدود قبدوقيا قرب توميسا عبر طوروس 450 مرحلة.

الفصل الثالث

1- بعد الساحل الواقع قبالة رودوس والذي تعدّ ديدالا حدوده (إذا أبحرت نحو مطلع الشمس)، تأتي ليكيا مباشرة، وهي تمتدّ حتّى بامفيليا؛ ثمّ تأتي بامفيليا التي تمتدّ حتّى كيليكيا التراخية؛ وبعدها تأتي منطقة هؤلاء الأخيرين وصولاً إلى منطقة الكيليكيين الآخرين الذين يعيشون حول خليج إيس. وتعدّ هذه البلدان أجزاء من شبه الجزيرة التي دعونا برزخها بالطريق التي تمتدّ من إيس حتّى أميس أو (بحسب آخرين) حتّى سينوبا؛ لكنّها تقع على ذلك الجانب من طوروس، على ساحل ضيّق يمتدّ من ليكيا وصولاً إلى منطقة سولا وتارس حيث يتسع ليتحوّل إلى سهل. وعلى هذا النحو فإنّ روايتي عن شبه الجزيرة كلّها تصل إلى خاتمتها بعد وصفي لهذا الساحل. فانتقل بعد ذلك إلى أجزاء آسيا الأخرى الواقعة على ذلك الجانب من طوروس، ثمّ أختم بوصف ليبيا.

2- وبعد ديدالا، مدينة الرودوسيين، يأتي جبل في ليكيا يحمل الاسم نفسه: ديدالا؛ ومن هنا تبدأ الطريق كلّها على طول الساحل الليكي الذي يمتدّ 1720 مرحلة؛ وهذا الساحل وعر وغير مستو، لكنّه غنيّ بالموانئ والمراسي، ويسكنه أناس فطنون متبصّرون. ومع أنّ طبيعة هذه البلاد تشبه طبيعة بامفيليا وكيليكيا التراخية، إلاّ سكّان بامفيليا استغلّوا موانئهم نقاط استناد لأعمال القرصنة؛ كما مارسوا القرصنة بأنفسهم أو قدّموا موانئهم للقراصنة كمحطات شراعية يبيعون فيها غنائمهم. وعلى أيّ حال بنيت في مدينة سيدا ترسانات لإصلاح سفن الكيليكيين الذين كانوا يبيعون هناك أسراهم في مزادات علنية، مع أنهم عدّوهم أحراراً. أمّا الليكيون فعلى الضدّ من ذلك، إذ اتبعوا نمط عيش حضاري متعقّل، ولذلك في الوقت الذي نشر فيه الكيليكيون سيادتهم البحرية حتّى إيطاليا، بفضل النجاحات التي حقّقوقها، لم تغر الليكيين أيّ منافع دنيئة، ولمّا لم يرغبوا في توسيع حدودهم، بقوا داخل الحدود الوطنية للاتحاد الليكي.

3- 23 مدينة في الاتحاد الليكي لها حقّ التصويت. ويجتمع سكّان كلّ مدينة

في مجالس عامّة لكي يختاروا بأنفسهم المدينة الملائمة لالتئام مجلسهم العام. ولكلّ من أكبر المدن 3 أصوات، وللمدينة المتوسّطة الحجم صوتان، ولكلّ من باقي المدن صوت واحد. وبحسب المبدأ عينه يؤدّون مساهماتهم والإتاوات الحكومية الأخرى. وبحسب أرتيميدور أن المدن الكبرى ست مدن: كسانثوس، وباتارا، وبينارا، وأوليمبوس، وميرا، وتلوس؛ وتقع هذه الأخيرة عند معبر جبلي يؤدّي إلى كيبيرا. وأوّل ما يفعلونه في اجتماع المجلس، هو انتخاب «الليكيارخ»[1]، ثمّ كبار موظفي الاتحاد الآخرين. كما يعيّنون القضاة معاً. وفي الأزمنة السابقة كانوا يبحثون شؤون الحرب والسلام، والاتحادات، أمّا الآن فمن البدهي أن هذا لم يعد جائزاً (لأنّ هذه المسائل بأيدي الرومان بالضرورة)، ما عدا بعض الحالات التي قد يسمح الرومان ببحثها، أو قد تكون لهم فيها منفعة. وعلى هذا المنوال يختارون القضاة وكبار الموظفين من كلّ مدينة بحسب عدد الأصوات. وفي ظل هذا البناء الرائع لدولتهم استطاعوا على الرغم من السيطرة الرومانية، أن يحافظوا على حريتهم وإرث آبائهم؛ لكنّهم بالمقابل رأوا أن القراصنة قضي عليهم تماماً، في الأوّل قضى عليهم سرفيليوس الإيسافري عندما دمّر إيسافرا، وبعده بومبييوس الأكبر الذي أحرق أكثر من 1300 من سفنهم ودمّر منازلهم؛ ومن بقي منهم على قيد الحياة أسكن بومبييوس فريقاً منهم في سولاّ (التي دعاها بومبييوسبوليس)، وأسكن الباقي في ديما قليلة السكّان، حيث توجد الآن قرية رومانية. وعلى وجه العموم يخلط الشعراء، والتراجيديون منهم على وجه الخصوص، بين هذه الشعوب: الطرواديين، والميسيسيين، والليديين، فيدعونهم فريجيين؛ ويدعون الليكيين، كاريين.

4- وهكذا، غير بعيد بعد ديدالا، وهي جبال في ليكيا، تقع مدينة ليكية صغيرة تدعى تيلميس، ورأس بحرية تدعى تيلميسيدا فيها ميناء. وقد نال إيفمين هذا المكان من الرومان في أثناء الحرب ضدّ أنطوخ، لكنّه أعيد إلى الليكيين بعد دمار مملكته.

5- وبعد ذلك مباشرة يأتي جبل أنتيكراغ الشديد الانحدار، حيث يقع في أخدود عميق مكان مأهول يدعى كارميليس؛ يليه جبل كراغ ذي القمم الثماني، ومدينة تحمل الاسم نفسه. وقد جعلوا من هذه الأطراف الجبلية المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة الخيميرا؛ فعلى مقربة من هنا يقع فعلاً أخدود عميق يدعى خيميرا يمتدّ من شاطئ البحر. وعند سفح كراغ في أعماق البلاد تقع بينارا التي تعدّ واحدة من

أكبر مدن ليكيا. ويعبدون هنا باندروس، وقد يكون تطابق اسمه مع اسم البطل الطروادي مجرّد مصادفة، على حدّ قول هوميروس أيضاً:

ابنة باندروس، العندليب الذي يعيش في الغابة الخضراء.

(*الأوذيسا* XIX، 518)

بل حتّى باندروس خرج من ليكيا، كما يقولون.

6- ثمّ يأتي نهر كسانثوس الذي كان يدعوه القدماء سيربيبوس. وإذا ما صعدت على مراكب في هذا النهر مسافة 10 مراحل، يلاقيك حرم للاتونا. وعلى بعد 60 مرحلة إلى الأعلى من الحرم، تقع مدينة الكسانثوسيين، وهي أكبر مدينة في ليكيا. وبعد كسانثوس تأتي باتارا، وهي مدينة كبيرة أيضاً، فيها ميناء وحرم لأبوللون بناه باتاروس. وقد أعاد بطليموس فيلاديلف بناء هذه المدينة ودعاها أرسينويا الليكية، لكنّ الاسم القديم هو الغالب.

7- وعلى مسافة 20 مرحلة عنها، فوق البحر تقع ميرا على هضبة عالية، يليها مصبّ نهر ليمير، وبعد مسير 20 مرحلة في داخل البلاد [نقترب من] مدينة صغيرة تدعى ليميرا. وبين هذه الأماكن، على الطريق المذكورة الممتدّة على طول الساحل يقع كثير من الجزر الصغيرة والمراسي بينها جزيرة ميجيستا ومدينتها التي تحمل اسمها نفسه، ثمّ جزيرة كيسفينا. وتقع في أعماق البلاد مواقع معروفة مثل فيللوس وأنتيفيللوس وخيميرا التي أتيت على ذكرها من قبل(2).

8- وتأتي بعد ذلك رأس بحرية مقدّسة وخيليدونيوس وهي ثلاث جزر صخرية أحجامها متقاربة تبعد واحدتها عن الأخرى ما يقارب 5 مراحل. أمّا عن البرّ فهي تبعد 6 مراحل، وفي واحدة منها محطة شراعية. ويرى أكثر المؤلّفين أن طوروس تبدأ من هنا، أوّلاً، لأنّ الرأس تتميّز بارتفاعها وتنحدر من الجبال البيسيدية التي ترتفع فوق بامفيليا، ثانياً، بسبب الجزر الواقعة أمامها والتي تشكّل في البحر ما يشبه نقطة رؤية تشبه المنحدر الجبلي. وواقع الحال أن السلسلة الجبلية تمتدّ من غير انقطاع، من الساحل الواقع قبالة رودوس حتّى الأجزاء القريبة من بيسيديا؛ وتدعى هذه السلسلة الجبلية بدورها، طوروس. وعلى أيّ حال فإنّ خيليدونيوس تقع على أغلب الظنّ قبالة كانوب(3). ويقولون إنّ خطّ العبور من هنا إلى كانوب(4)، يشكّل 4000 مرحلة. ومن الرأس البحرية المقدّسة إلى أولبيا 367 مرحلة؛ وتقع في هذا الحيّز كرامبوسا،

وأوليمبـوس، وهـي مدينـة كـبيرة تحمـل اسـم الجبـل عينـه، وتـدعى أيضـاً فينيكونـت. ويأتي بعد ذلك كوريكس، وهو ساحل بحري.

9- تلـي ذلـك فاسـيليدا الـتي فيهـا ثـلاث مـوانئ، وهـي مدينـة كـبيرة، ثـمّ تـأتي بعدها بحيرة. ويعلو فوقها جبل سوليما، ومدينـة تيرميس البيسيدية الواقعة على مقربة من المضـائق الجبليّة؛ ويوجـد هنـا معبر جبلـي إلى ميليـادا. وكـان الإسـكندر قـد دمّـر ميليادا لأنه عزم على جعل المضائق مفتوحة. وعند فاسيلدا قرب البحـر، يقـع فجّ قاد الإسكندر قواته عبره. وثمّة جبل هناك يدعى كليماكس يقع على مقربة من البحـر البامفيلي ويترك على الشاطئ معبراً ضيّقاً. وعندما يكون الطقس صافياً هادئـاً يكـون المعبر صالحاً لعبور المشـاة، ولكـنّ الأمـواج تغمـره لمسافة طويلة في أثنـاء المدّ البحـري. والمعبر عبر الجبل شديد الانحدار ويرسم شكل الخطّاف، ولذلك يستخدم المشاة طريق الشـاطئ عنـدما يكـون الطقـس هادئـاً. وقـد صـادف مـرور الإسـكندر هنـا في أثنـاء العواصف الشتوية، وكعادته تقدّم على رأس قواته معوّلاً على أنه صـاحب حظّ سعيد، وسـار علـى طريـق الشـاطئ قبـل أن تكـون الأمـواج قـد تراجعـت، فاضـطر جنـوده أن يخوضوا يوماً كاملاً في مياه تغمر أجسادهم حتّى الخصـر. وفاسـيليدا مدينـة ليكيـة، ومع أنها على الحدود نحو بامفيليا إلاّ أنها ليست تابعة للاتحاد الليكـي، بل هـي مدينـة مستقلّة.

10- ويفـرّق هـوميروس بـين السـوليميين والليكـيين، فعنـدما أرسـل ملـك الليكيين بيلليروفون في المأثرة الثانية، فإنه

بعد ذلك شنّ حرباً على السوليميين، الشعب الماجد.

(الإلياذا VI، 184)

ولكنّ الكتّاب الذين يزعمون أنّ الليكيين كانوا يدعون سوليميين في الأوّل، ثـمّ دعيـوا تيرميلـيين (علـى اسـم التيرميلـيين الـذين جـاؤوا مـن كريـت وعلـى رأسـهم سربيدون)، وبعد ذلك ليكيين (من ليكـوس بـن بانـديون الـذي استقبله سـربيدون بعـد أن نُفـي مـن بـلاده، ومنحـه شـطراً مـن مملكتـه)، يختلفـون مـع هـوميروس. ويحظـى بمشروعية أكبر رأي آخر يرى أصحابه أن من يدعون الآن ميليين (الـذين تحـدّثنا عنهم سابقاً)[5]، هم الذين يدعوهم الشّاعر سوليميين.

الفصل الرابع

1- بعد فاسيليدا تأتي أولبيا، وهي بداية بامفيليا، وحصن كبير؛ ويليها ما يدعى كاتاركات، وهو نهر يشبه السيل المائي الصاخب الذي يهوي من أعلى صخرة شاهقة، ويسمع صوت صخبه من مسافة بعيدة. تليه مدينة أتّاليا التي سميّت باسم مؤسّسها أتال فيلاديلف الذي أنشأ مستعمرة أخرى في مدينة كوريكس الصغيرة المجاورة، وأحاطها بسور أطول منها. وبين ماسيليدا وأتّاليا تظهر كما يقولون، طيبة وليرنيسّ، لأنّ كاالليسفين يقول، إن فريقاً من الطروادين الكيليكيين فرّ هارباً من سهل طيبة إلى بامفيليا.

2- ويأتي بعد ذلك نهر كيستروس، وعلى بعد 60 مرحلة صعوداً مع مجراه، تقع مدينة بيرغا؛ وعلى مقربة من بيرغا، فوق مرتفع يقع حرم أرطميس البيرغية الذي يحتفلون فيه بعيد شعبي مشترك. وبعد ذلك بأربعين مرحلة فوق سطح البحر، تقع في مكان مرتفع مدينة سيللوس التي ترى من بيرغا. وتأتي بعد ذلك بحيرة كبيرة تدعى كابريا، يليها نهر إيفريميدونت، وعلى بعد 60 مرحلة صعوداً مع مجراه، تقع مدينة أسبيند التي يعيش فيها عدد كبير من السكّان، وكان الأرغيفيانيون هم الذين بنوا هذه المدينة. وإلى الأعلى من هذه المدينة تقع بيتنيليس. يليها نهر آخر يقع أمامه عدد كبير من الجزر الصغيرة. وتأتي بعد ذلك سيدا، وهي مستعمرة للكيميين فيها معبد لأثينا. وعلى مقربة يمتدّ شاطئ الكيبيرات الصغيرات. وبعده نهر ميلان وعليه مرسا للسفن. وتأتي بعد ذلك مدينة بطليموسيا، وبعدها حدود بامفيليا وكوراكيسوس، أي بداية كيليكيا التراخية. ويبلغ طول خطّ الإبحار على طول سواحل بامفيليا 640 مرحلة.

3- ووفق ما ينقله هيرودوت[1] إن البامفيليين يرجعون بأصولهم إلى الأقوام الذين كان يقودهم أمفيلوخ وكالخانت، وقد كان هؤلاء خليطاً من القبائل التي تبعتهما من تحت أسوار طروادا. وبقي أكثرهم هنا، بينما انتشر بعضهم في شتّى أرجاء الأرض. ويزعم كاللينوس أن كالخانت مات في كلارس، فعبر ناسه طوروس بزعامة موبسوس، وبقي فريق منهم في بامفيليا، وتوزّع فريق آخر في كيليكيا، وسوريا، بل وصلوا حتّى فينيقيا.

الفصل الخامس

1- فيما يخصّ كيليكيا التي وراء طوروس، فإنّ جزءاً منها يدعى تراخييا، ويدعى الجزء الآخر منها بيديادا[1]. وعن تراخييا نقول، إن ساحلها يفتقر إلى الأراضي المستوية أو ليس فيه سوى قليل منها؛ زد إلى هذا أنها تقع عند سفوح طوروس، وإن سكّانها قلّة وصولاً حتّى المنحدرات الشمالية في منطقة الإيسافريين، والهوموناديين وصولاً إلى بيسيديا. وتدعى هذه البلاد تراخيوتيدا أيضاً، ويدعى سكّانها تراخيوتيين. أمّا كيليكيا بيديادا فتمتدّ من سولا وتارس حتّى إيس، وعلاوة على ذلك تصل إلى تلك الأجزاء التي يقطن القبدوقيون إلى الأعلى منها على منحدر طوروس الشمالي. وأكثر أجزاء هذه البلاد سهول وأراض خصبة. وبما أنّ جزءاً منها يقع على هذا الجانب من طوروس، والجزء الآخر وراء طوروس، وبما أننا تحدّثنا سابقاً عن الجزء الأوّل، فسأتحدّث الآن عن الجزء الواقع وراء طوروس، وسأبدأ من التراخيوتيين.

2- إن أوّل نقطة في كيليكيا، هي حصن الحراسة كوراكيسوس الذي يقوم على صخرة شديدة الانحدار. وقد اتخذه ديودوت الملّقب تريفون نقطة استناد عندما قاد انتفاضة في سوريا ضدّ ملوكها، وحاربهم فانتصر عليهم تارة وهزم أمامهم تارة أخرى. وأخيراً نجح أنطوخ بن ديميتري أن يحشره في مكان ما، ويرغمه على أن ينهي حياته بيده. وكانت انتفاضة تريفون مع ضعف الملوك الذين حكموا سوريا وراثياً ومعها كيليكيا، الدافع الأوّل الذي حرّض الكيليكيين على تنظيم عصابات من القراصنة. لأنّ انتفاضة تريفون تبعتها انتفاضات أخرى؛ وعلى هذا النحو جعلت خلافات الاخوة من البلاد ضحية العدوان الخارجي. وما كان له دور خاصة في التحريض على العنف، هو تصدير العبيد الذي كان يدرّ أرباحاً خرافية؛ لأنّ اصطياد العبيد كان يجري بسهولة، كما كانت سوق النخاسة كبيرة وغنية وغير بعيدة، إذ توضّعت تحديداً في ديلوس، التي كانت قادرة على أن تستقبل في اليوم الواحد عشرات آلاف العبيد وتبيعهم. ومن هنا شاع المثل القائل: «أيها التاجر، أرس وأفرغ السفينة، فقد بيع كلّ ما فيها». ويكمن سبب هذا في أنه بعد تدمير قرطاجا وكورينثوس، بات الرومان أثرياء، وأصبحوا بحاجة إلى أعداد كبيرة من العبيد. وتبعاً لمثل هذه السهولة في التسويق، ظهر القراصنة بأعداد كبيرة، وغدوا يصطادون الغنائم بأنفسهم ويبيعون العبيد. وساعدهم في هذا ملوك قبرص ومصر، الذين كان العداء مستفحلاً بينهم وبين السوريين. كما

لم يكـن الـرودوسـيون أصـدقاء للسـوريين، ولـذلك لم يمـدّوا يـد العـون لهـم. وفي غضـون ذلك واصل القراصنة أعمالهم الشريرة تحت مسمّى تجار العبيد. ولم يكـن الرومـان قـد أولوا عندئذٍ اهتماماً يذكـر لقبائل ما وراء طوروس. ولكنّهم أرسلوا سيبيون إيمليان ثـمّ بعض القادة الآخـرين لكـي يدرسـوا علـى أرض الواقـع أحـوال القبائـل والمدن. وقـد قـرّر هؤلاء أن القرصنة ليست سوى نتيجة لفساد الحكّام، مـع أنهـم عفّـوا عـن إزاحـة هـؤلاء الأخيرين، لأنّهم هم أنفسهم رسّخوا نظـام وراثـة الحكـم وفـق نمـط سـلوقس نيكـاتور. فأفضـت حـال الـبلاد هـذه إلى سـيطرة البـارثيين الـذين امتلكـوا المنطقـة الواقعـة وراء الفرات، ثمّ أرمينيا. ولم يكتف البـارثيون بإخضـاع الـبلاد الممتـدة وراء طـوروس وصـولاً إلى فينيقيا، إنمـا حطمـوا الملـوك أيضـاً وقضـوا حسـب الممكـن، علـى السـلالة الملكيـة كلّهـا، ووضـعوا البحـر تحـت تصـرّف الكيليكـيين. ولكـن بعـد أن تنـامى جـبروت البـارثيين، اضـطر الرومـان إلى تقليصـه بـالحرب، مـع أنهـم قبـل ذلـك لم يعوقـوا تنـامي قوتهم. وعلى وجه العموم، مـن الصـعب اتهـام الرومـان بالإهمـال، فقـد كـانوا مشـغولين بـأمور أكثـر إلحاحـاً ولا تحتمـل أيّ تأجيـل، ولـذلك لم يكـن بمقـدورهم أن يأخـذوا بالحسـبان مـا يجـري في الأطـراف النائيـة. وهـذا مـا قـررت أن أقولـه باختصـار تاركـاً موضوع وصفي لحين.

3- بعـد كوراكيسـوس تـأتي مدينـة أرسـينويا[2]، ثـمّ هاماكسـيا، وهـي قريـة قائمة على هضبة وفيها محطة شـراعية يشـحنون إليهـا أخشـاب الغابـات، خاصـة خشـب الأرز؛ ويبدو أنّ هذه المنطقة تتفوّق على سواها بالأخشاب الصالحة لبنـاء السـفن. ولـذلك أعطاها أنطونيو لكليوباترا، لأنها صالحة لإعادة بناء أسطولها. وبعدها ماكسـيا تـأتي لايرس، وهي حصن مراقبة فيه محطة شراعية، ويقع الحصن فوق هضبة علـى شـكل صدر امرأة. وتأتي بعد ذلك سيلينونت، وهـي مدينـة ونهـر، تليهمـا كـراغ، وهـي صـخرة شاقولية شـديدة الانحـدار تقـع علـى البحـر تليهـا قلعـة كارادرونـت ومحطتهـا الشـراعية (يعلـو فوقهـا جبـل أنـدريكلس)، وسـاحل صـخري يـدعى بلاتانيسـت. ثـمّ تـأتي رأس أنيمـوروس البحريـة حيـث الـبرّ أقـرب مـا يكـون إلى قـبرص قبالـة رأس كـروميس البحرية، علـى مسـافة 350 مرحلـة. والطريق البحرية على طول سـاحل كيليكيـا مـن حدود بامفيليا إلى أنيموروس 820 مرحلة؛ أمّا ما تبقّى مـن السـاحل، حتّـى سـولا، فيبلـغ طوله 500 مرحلة. وأوّل مدينـة علـى هـذا السـاحل بعـد أنيمـوروس، هـي ناجيـدس، تليهـا أرسينويا ومحطتها الشـراعية، وبعـدها موقـع يـدعى ميلانيـا، ثـمّ مدينـة كيليندريـدس

ومِيناؤهــا. وبحســب بعــض المــؤلّفين (ومــنهم أرتيميــدور)، إن كيليكيــا تبــدأ مــن كيلينديريــدس، ولــيس مــن كوراكيســوس. ويــزعم أرتيميــدور أن المســافة مــن المصــب البيلوســي حتّــى أورفوســيا 3900 مرحلــة، وحتــى نهــر العاصــي 1130 مرحلــة، وحتــى البوابات السورية 525 مرحلة، وأخيراً حتّى حدود[3] كيليكيا 1260 مرحلة.

4- وتأتي بعد ذلك غولما حيث كان يقطن من قبل سلوقيو اليوم، ولكنّهم بعد بنـاء سـلوقيا علـى كاليكـادنس، انتقلـوا ليسـكنوا هنـاك؛ وإذ نتجـاوز الضـفّة الـتي تشكل الرأس البحرية التي تدعى سربيدون، نقترب مباشرة إلى مصبّ كاليكادنس. وعلـى مقربـة مـن كاليكـادنس تقـع زيغـيرس، وهـي رأس بحريـة أيضـاً. والنهـر صـالح للملاحة صعوداً حتّى سلوقيا، وهـي مدينـة يسـكنها عـدد كبير مـن النـاس، وتتمـايز بعاداتها تمايزاً كبيراً عن المدن الكيليكية والبامفيلية. وسلوقيا مسقط رأس اثنين من ألمع شخصيات عصرنا: فيلسوفـي المدرسـة المشـائية أثينـوس وكسـينارخس. وقـد عمـل الأوّل منهما رجل دولة في مدينته الأم، فكان زعيم الشعب فيها لبعض الوقت. ثمّ أقام علاقات ودّية مع مورينا، وبعد الكشف عن المؤامرة التي حيكت ضدّ قيصر، أُلقي القبض على الرجلين بينما كانا هاربين. وعندما ثبتت براءة أثينوس، أطلق قيصر سراحه. ولدى عودته من روما[4] أجاب الفيلسوف على تساؤلات الذين جاؤوا لتحيته، ببيت الشعر التالي ليوريبيدس:

أنا هنا، لقد تركت قناطر وبوابات ظلام هاديس...

(هيكابي، 1)

ثـمّ عـاش بعـد ذلـك بعـض الوقـت وهلـك لـيلاً عنـدما انهـار البيـت الـذي كـان يسكنه. أمّا كسيارخس الذي كنت أنا تلميذه، فقد بقي بعض الوقت في دياره، ثمّ عاش بعد ذلك في الإسكندرية، وأثينا، وأخيراً في روما، إذ اختار مهنة معلّم. ولمّا كان صديقاً لآريوس وقيصر أغسطس، فقد وفّرت له هذه الصداقة مكانة مرموقة في شيخوخته. وقبل وفاته بقليل فقد كسينارخس بصره، ومات بمرضه.

5- وبعـد كاليكـادنس صـخرة تـدعى بيكـيلا[5] حفـر فيهـا سـلّم يقـود إلى سلوقيا. ثمّ تلي ذلك رأس أنيموروس البحرية، سميّة الرأس التي ذكرناها من قبل[6]، وبعدها جزيرة كرامبوسا، ورأس كوريكس البحرية؛ وإلى الأعلى منها بعشرين مرحلة يقع الكهف الكوريكسي حيث ينمو أجود أنواع الزعفران[7]. والكهف عبارة

عن وهدة بيضوية الشكل أبعادها كبيرة، تحيط بها من شتّى الجهات جروف صخرية عالية. ولدى هبوطنا إلى هناك يلقانا قاع غير مستو جزؤه الأكبر صخري، تغطيه شجيرات دائمة الخضرة. وتتوزّع قطع القاع بين خمائل الشجيرات، وهناك في تلك القطع ينمو الزعفران. وهناك أيضاً كهف فيه ينبوع كبير يشكل نهراً صغيراً ماؤه صاف؛ وهنا في المكان عينه يغور النهر في أعماق الأرض، ثمّ يجري مختفياً تحت الأرض ليصبّ بعد ذلك في البحر. ويدعى النهر «بالمياه المرّة»[8].

6- وبعد كوريكس تقع جزيرة إيليوسا على مقربة من البرّ، وقد سكنها أرخيلايوس وجعل منها مقرّه الملكي بعد أن نال ملكية[9] له كلّ كيليكيا التراخية ما عدا سلوقيا، وفق الأسس عينها التي قامت عليها سابقاً ملكية أمينتا، وقبله كليوبترا للمنطقة. فالرومان إذ أخذوا بعين الحسبان أن هذا المكان ملائم بطبيعته لنشاط قطاع الطرق والقراصنة (لقطاع الطرق بسبب الجبال والقبائل التي تستوطن سفوحها وسهولها الشاسعة، وحقولها المفتوحة لغزوات الأعداء؛ والقراصنة بسبب وفرة الأخشاب الصالحة لصناعة السفن، والمراسي، والحصون، والملاجئ الخفية)، آثروا أن تبقى هذه البلاد تحت سلطة الملوك، ولا توضع تحت حكم ولاة رومان يرسلون إلى هناك للنهوض بالمهام القضائية من غير أن تتوفّر لهم دائماً إمكانية الإقامة الدائمة أو تكون تحت تصرّفهم قوّات عسكرية. وعلى هذا النحو تلقى أرخيلايوس كيليكيا التراخية إضافة إلى قبدوقيا. ويشكّل حدود الأولى نهر لام وقرية تحمل الاسم نفسه وتقع بين سولامي وإيليوسا.

7- ويقع في أعالي قمم طوروس حصن للقراصنة يدعى زينيكيس، والأوليمب، وهو جبل يحمل اسم القلعة عينه، ويمكن أن ترى من هناك ليكيا كلّها، وبامفيليا، وبيسيليا، وميليادا. وبعد أن استولى سرفيليوس الإيسافري على الجبل، أحرق زينيكيس نفسه ومنزله كلّه. وكانت تخضع له كوريكس، وفاسيليدا وأماكن أخرى كثيرة في بامفيليا، لكن سرفيليوس الإيسافري استولى على هذا كلّه.

8- وتأتي بعد لام سولا، وهي مدينة كبيرة تشكّل بداية كيليكيا الأخرى التي تحيط بإيّس. وكان الآخيون والرودوسيون الليندیسيون هم الذين أسّسوا هذه المدينة. ونظراً لقلّة عدد سكّانها، أسكن بومبييوس الأكبر فيها ما تبقى من القراصنة على قيد الحياة، وهم الذين عدّهم الأكثر جدارة بأن يبقوا على قيد الحياة، ويحظوا ببعض العناية. وقد تغيّر اسم المدينة إلى بومبييوبوليس. ومن الشخصيات

الشهيرة التي تنتمي إلى هـذه المدينـة: كـريسـيب، وهـو فيلسـوف رواقـي كـان والـده مـن تـارس، ثـمّ انتقـل للإقامـة هنـاك؛ وفيلمـون الشّـاعـر الكـوميـدي، وأراتـوس الـذي كـتب بحثاً عنوانه «الظاهـرات» شعـراً.

9- وتأتي بعد ذلك زيفيريس سميّة مكـان يقـع قـرب كـاليكـادنس. وإلى الأعلـى قليلاً فوق البحر تقع ألخيالا التي أسّسها، على حدّ قـول أريسـتوبول، سـاردانابال. وهنـا يقع قبر هـذا الأخير وتمثالـه الحجـري (الـذي تضـغط أصـابع اليـد اليمنـى فيـه، وكـأنـه يطقطقهـا) الـذي يحمـل الـنص التـالي المكـتوب بـالأحرف الآشـورية: «سـاردانابال ابـن أناكينداراكس، بنى أنخيلا وتارس قي يوم واحد. كلْ، واشـرب، وافـرح، لأنّ مـا عـدا ذلـك كلّـه لا يسـتحق»- طقطقـة أصـابع وحسـب. وقـد أتـى كيريلـوس علـى ذكـر هـذا النقش؛ وفعلاً شاع بيتا الشعر الآتيان في كلّ مكـان:

أشهى المأكولات، ولهو الحب- كلّه لي- استمتعت به

وليس بالحنق والغضب، لقد تركت كلّ هذا منذ زمن

بعيد، بعد أن شربت كأس الثروة مترعة.

10- وفوق أنخيالا إلى الأعلـى تقـع كيينـدا، وهـي قلعـة كـانـت تحفـظ فيهـا في زمن ما خزنة المقدونيين. ولكن إيفيمين استولى على الثروات بعـد أن أثـار عصـيانـاً ضـدّ أنتيغون. وإلى الأعلى من كييندا وسولا تقع بلاد جبلية تقع فيها مدينة أولبا وفيها معبـد لزيوس أسّسه إيانثوس بن تيفكـروس. وقد صار كـاهن المعبـد إلى حـاكم تراخيوتيـدا؛ ثمّ سعى كثير من التيران بعد ذلك للسيطرة علـى الـبلاد، وظهـرت هنـاك عصـابات مـن قطاع الطرق. وبعد أن تمّ القضاء على هذه الأخيرة، في زمننا الحاضر، باتت هذه الـبلاد وكهنوتهـا يـدعيان ملكيـة تيفكـروس، وحمـل أكثـر الكهنـة اسـم تيفكـروس وإيانثوس. وعنـدما انتمـت آبـا ابنـة زينوفـانوس، أحـد الـتيران إلى هـذه العائلـة عـن طريـق الزواج، استولت هي نفسها على السلطة التي كانت من قبل لأبيها بصفته وصيّاً. وفيمـا بعد استجاب أنطونيو وكليوبترا لتوسلاتها وقدّما لها العون، ومع ذلك أُطيح بها بعدئذٍ، لكنّ السلطة بقيت في سلالتها. - ويأتي بعد أنخيالا مصبّ كيـدنس، علـى مقربـة ممـا يدعى زيغما. وهو مكان مستنقعي فيه ترسـانات قديمـة العهـد لإصـلاح السـفن؛ ويصـبّ هنـا نهـر كيـدنس الـذي يجـري مخترقـاً وسـط تـارس؛ وتقـع منـابع هـذا النهـر في مدينـة تافروس التي تقع إلى الأعلى. والبحيرة بدورها محطة شراعية لتارس.

11- وحتّى هذه النقطة يمتدّ الساحل كلّه؛ ولكنّه ابتداء من المنطقة الواقعة قبالة رودوس يتّجه نحو الاعتدال الشرقي من الاعتدال الغربي[10]، ثمّ ينعطف نحو المشرق الشتوي[11] وصولاً إلى إيسّ، ومن هناك ينثني نحو الجنوب وصولاً إلى فينيقيا؛ ويمتدّ جزؤه الباقي غرباً حتّى الأعمدة حيث ينتهي. والحقيقة أن برزخ شبه الجزيرة الذي وصفته هنا، هو البرزخ الذي يمتدّ من تارس ومصبّ كيدنس حتّى أميس، لأنها أقصر مسافة من أميس إلى حدود كيليكيا. فمن هنا حتّى تارس 120 مرحلة فقط، ومن تارس حتّى مصبّ كيدنس ليس أكثر من ذلك. بيد أنه حتّى إيس وحتى البحر القريب لا توجد طريق أقصر انطلاقاً من أميس كتلك التي تمرّ عبر تارس، ومن تارس حتّى إيس ليست المسافة أقرب منها إلى كيدنس[12]. ولذلك فإنه من الواضح أن هذا برزخ فعلاً، مع أنهم يرون أن البرزخ الحقيقي هو الخطّ الذي يمتدّ حتّى خليج إيس، فيحرّفون بذلك الوقائع من أجل أهمية الخليج. ولهذا السبب، أنا أرى أن الخطّ الذي يبدأ من رودوس (والذي أصل به إلى كيدنس)، يساوي الخطّ الذي ينطلق إلى إيسّ، ولا أجد أيّ فرق بينهما، كما أزعم أيضاً أن طوروس تمتدّ على هذا الخطّ مباشرة إلى الهند.

12- تقع تارس في سهل؛ وقد أسّسها الارغيفيانيون الذين تشرّدوا وجابوا الآفاق مع تريبتوليموس بحثاً عن إيو. ويجري نهر كيدنس وسط المدينة على مقربة مباشرة من جمنازيوم الفتيان. وتقع منابع النهر على مقربة، ويمرّ مجراه عبر فجّ عميق، ثمّ يندفع بعد ذلك إلى المدينة مباشرة، شغابه باردة وسريعة، ولذلك فالنهر نافع للحيوانات المنزلية والناس الذين يعانون من الروماتيزم وانتفاخ العروق.

13- ولم يكن سكّان تارس شغوفين بالفلسفة فقط، بل بمواد الثقافة العامّة أيضاً، وقد تفوّقوا في هذا على أثينا، والإسكندرية، وأيّ مكان آخر فيه مدارس لتعليم الفلسفة وتعلّمها. وتتميّز هذه المدينة عن مثيلاتها الأخريات في أنّ كلّ من يشتغل بالعلم هنا من السكّان المحلّيين، أمّا الغرباء فلا ينتقلون للإقامة هنا برغبتهم. وحتّى السكّان المحلّيون أنفسهم لا يبقون هنا، بل يغادرون إلى الخارج لإتمام تعليمهم؛ وبعد أن يكملوه، يفضّلون الإقامة هناك حيث هم، ولا يعود منهم إلى تارس سوى قلّة. أمّا في المدن الأخرى كما أشرت قبل قليل، ما عدا الإسكندرية، فإننا نقف على ظاهرة معاكسة: يأتي إلى هناك كثير من الأجانب، فيقضون وقتهم برضا وسرور؛ أمّا السكّان المحلّيون، فإن قلّة منهم رأت الخارج، أي أولئك الذين سافروا طلباً للعلم، أو كرّسوا أنفسهم للعمل العلمي في الوطن. أمّا سكّان الإسكندرية فإنهم يجمعون بين

الظاهرتين: يستقبلون في مدارسهم كثيراً من الأجانب، ويرسلون أعداداً غير قليلة من مواطنيهم إلى الخارج. وفي تارس كثرة من مختلف مدارس علم البلاغة والبيان. وعلى وجه العموم توجد في تارس أعداد كبيرة من السكّان، وبين هؤلاء كثير من المواطنين الأثرياء. فتارس تشغل مكانة المدينة الرئيسة.

14- وتارس مسقط رأس الفلاسفة الرواقيين أنتيباتر، وأرخيديموس، ونسطور، إضافة إلى اثنين باسم أثينودوروس: أحدهما يحمل لقب كورديليون، وقد عاش في منزل مارك كاتون، ومات فيه؛ والآخر ابن ساندون، الذي نسب إلى قرية ما تدعى كانانيت، وكان هذا معلّم قيصر الذي منحه قدراً كبيراً من الاحترام. ولدى عودته إلى دياره شيخاً متقدّماً في السن، عزل الحكومة التي كانت قائمة هناك. وكان قد برز بين رجال تلك الحكومة الرعناء، المدعو بويفوس، وهو شاعر رديء، ومواطن فاسد لم يكتسب نفوذه إلاّ بالتزلّف إلى الشعب وتملّقه. وكان مديناً بصعوده سلّم السلطة لأنطونيو (الذي أعجب منذ البداية بالقصيدة التي كتبها بويفوس ويمدح فيها الانتصار الذي تحقّق في فيليبا)، وبدرجة أكبر لموهبته (التي شاعت في أوساط التارسيين) في التحدّث من غير انقطاع بأيّ موضوع كان من دون تحضير مسبق. زد إلى هذا أن أنطونيو وعد التارسيين بإحداث وظيفة الجمنازي(13)، وعيّن بويفوس بدلاً من الجمنازيّ، وعهد إليه بتحصيل النفقات المرتبطة بهذا العمل. ولكنّ بويفوس اتّهم باختلاس زيت الزيتون (إضافة إلى أشياء أخرى). ولمّا أثبت المدعون عليه صحّة اتهامهم له بحضور أنطونيو، نجح في تهدئة غضب هذا الأخير بالكلمات الآتية: «كما تغنّى هوميروس بمدح أخيليس وآغاممنون، وأوديسيوس، كذلك تغنيت أنا بمآثرك. ولذلك لا يجوز أن أُرمى أمامك بمثل هذه الافتراءات». فتلقف المدّعي كلماته هذه وقال معترضاً: «هذا صحيح، لكنّ هوميروس لم يختلس زيت الزيتون لا من آغاممنون، ولا من أخيليس، أمّا أنت فقد اختلست؛ لذلك ستعاقب». ومع ذلك نجح بويفوس في تفادي غضب أنطونيو متملقاً، وواصل نهب المدينة حتّى سقوط أنطونيو. على هذه الحال وجد أثينودوروس المدينة، فحاول إقناع بويفوس وشركائه أن يغيّروا سلوكهم بالحسنى. ولكن بما أنه لم يكن يخطر لهؤلاء مجرّد خاطر أن يتخلّوا عن تصرّفاتهم الوقحة، لذلك لجأ أثينودوروس إلى استخدام السلطة التي منحها له قيصر، وحكم عليهم بالنفي، وأرغمهم على مغادرة المدينة. أمّا هم ففي بادئ الأمر كتبوا على السور بيت الشعر الآتي:

مآثر الشبّان، ونصائح الرجال، عصف ريح لدى الشيوخ.

ولمّا كـان أثينودوروس قد أخذ النقش كطرفة وحسب، أمر أن يكتـب بـدلاً مـن هذا «عصف الشيوخ»، لكنّ أحدهم، ويبدو أنـه لم يكـن يقيم وزنـاً لأيّ لباقـة، كمـا كان يعاني من تلبّك معوي، لطّخ ليلاً باب بيت أثينودوروس وجداره. فألقى أثينودوروس خطبـة في مجلس الشعب أدان فيها هـذا السلوك، وقـال غاضبـاً: «ثمّـة أسـاليب كـثيرة لمعرفة المرض الذي تعاني منه مدينتنا، وإدراك حالتها الصعبة خاصة مؤشر برازها». وكـان الذين سلكوا هـذا السلوك القبـيح، أشخاص رواقيـون. وفي زمني أنـا كـان نسطور أكاديمياً، ومعلّم مارسيللوس ابن أوكتافيا شقيقة قيصر. وكان هذا رئيس حكومة تارس بصفته خليفة أثينودوروس، وكـان لـه مكانتـه الراسخة لدى الولاة في المدينة.

15- ومن فلاسفة تارس الآخرين الذين

أعرف جميعهم بسهولة، وأستطيع أن أذكر لك اسم كلّ منهم،

(*الإلياذا* II، 235)

كـان بلوتيادس وديوجينـوس ينتميـان إلى عـداد أولئك الذين كـانوا ينتقلـون مـن مدينـة لأخـرى، وأسّسوا مدارس رائعـة. وكـان ديوجينـوس يرتجل مـن وحـي الموضوع المطروح شعراً ذا طابع تراجيدي. ومن لغويّ تارس الذين بقيت أعمالهم حيّة، أرتيميدور، وديـودوروس. وكـان ديونيسيدس أفضل الشعراء التراجيديين، وواحداً مـن الذين يصنّفونهم في عداد البليادا[14]. وروما بالمناسبة، مدينـة على هـذا المنوال، إذ يمكـن أن تعطينا تصوّراً عن كثير من علماء تارس؛ وهي فعلاً تعجّ بالتارسيين والإسكندريين. هذه هي تارس.

16- وبعد كيدنس يأتي نهر بيرياموس الذي يجري من كاتاونيا، وهـو مـا كنت قد ذكرته من قبل[15]. وبحسب أرتيميدور أن طول الطريق البحرية من هنا حتّى سولا 500 مرحلة. وعلى مقربة تقع ماللوس فوق مرتفع؛ وكـان أمفيلوخ وموبسـوس بـن أبوللون ومانتو اللذين أُنشئ بهما كثير من الأساطير، قد أسّسا هذه المدينة. وأنا كنت قد ذكّرت بهما في قصة كالخانت[16]، في سياق نزاع هذا الأخير مع موبسوس على موهبة التنبّؤ. فثمّة مؤلّفون، كسوفوكليس على سبيل المثال، ينقلون هـذا النزاع إلى كيليكيا التي يدعونها كدأب الشعراء التراجيديين بامفيليا (على منوال تسميته

ليكيا، كاريا، وطروادا وليديا، فريجيا). ومثله كمثل الآخرين يتحدّث سوفوكليس أيضاً عن موت كالخانت هنا. وكان الجدال قد دار، وفق ما تنقل الأساطير، لا عن موهبة التنبّؤ فقط، إنما بصدد السلطة أيضاً. فبحسب الأسطورة أن موبسوس وأمفيلوخ أسّسا ماللوس؛ ثمّ رحل أمفيلوخ إلى آرغوس ولكن، لمّا لم تعجبه الحال هناك عاد إلى ماللوس فأبعدوه هنا عن المشاركة في شؤون الحكم، عندئذٍ دعا أمفيلوخ موبسوس إلى المبارزة التي أسفرت عن مقتل الرجلين، فدفنا بحيث لا يمكن أن يقع أحدهما في دائرة رؤية الآخر. وحتى يومنا هذا يرونك قبريهما قرب ماغاريسا عند نهر بيرام. وماللوس مسقط رأس اللغوي كراتيت الذي يقال، إنّ بانيسيوس كان تلميذه.

17- وإلى الأعلى من هذا الساحل يقع سهل أليوس الذي قاد فيلوتوس فرسان الإسكندر عبره، وفي الوقت نفسه كان الإسكندر يخرج بكتائبه من سولا عبر الساحل ومنطقة ماللوس ليهاجم إيسّ وجحافل داريوس. ويقال، إن الإسكندر قدّم هنا ذبيحة لأمفيلوخ احتراماً لقرابته مع الأرغيفيانيين. وعلى حدّ قول هسيود، إن أبوللون قتل أمفيلوخ في سولا، لكنّ كتّاباً آخرين يقولون، إنه قتله قرب سهل أليوس، ويقول فريق ثالث، إنه قتله في سوريا بعد أن غادر ذاك سهل أليوس إثر نزاع.

18- وبعد ماللوس تأتي مدينة صغيرة تدعى إيجي ومحطتها الشراعية، تليها البوابات الأمانية ومحطتها الشراعية، وهنا ينتهي جبل أمانوس الذي يعدّ من ذيول طوروس التي ترتفع فوق كيليكيا شرقاً. وكان هذا الجبل دائماً تحت سلطة التيران الذين كانت لهم هناك عدة حصون. وحاكم تلك الأرجاء كلّها الآن، هو تاركونديموت، الرجل الفذّ الذي أعلنه الرومان ملكاً بسبب بسالته؛ وورّث هذا العرش لسلالته.

19- وبعد إيجي تأتي مدينة إيس الصغيرة وفيها محطة شراعية، ثمّ يأتي نهر بينار. وهنا وقعت معركة الإسكندر مع داريوس. ويدعى الخليج خليج إيسّ؛ وتقع عليه مدن روس، وميرياندرس، والإسكندرية، ونيكوبوليس، وموبسويستيا، وما يدعى البوابات السورية، ثمّ الحدود بين كيليكيا وسوريا. ويقع في كيليكيا أيضاً حرم وموْحى لأرطميس السربيدونية؛ وينطق بالنبوءات هنا متنبّئون يوحى إليهم.

20- وأوّل مدينة سورية بعد كيليكيا، هي سلوقية بيريا، وعلى مقربة مصبّ العاصي. والطريق البحرية من سلوقيا إلى سولا مباشرة أقلّ من 1000 مرحلة بقليل.

21- وبما أنّ كيليكيي طروادا الذين يذكرهم هوميروس، يقيمون بعيداً عن

الكيليكيين الذين يسكنون وراء طوروس، فقد رأى بعض الكتّاب أن كيليكيي طروادا هم الأصل، ويشيرون في غضون ذلك إلى تطابق أسماء بعض الأماكن مثل طيبة، وليرنيس في بامفيليا؛ بينما يزعم آخرون العكس، فيشيرون هناك إلى سهل أليبوس. ولدى وصف أجزاء شبه الجزيرة المذكورة، الواقعة على ذلك الجانب من طوروس، ينبغي عليّ أن أضيف الآتي.

22- يؤكّد أبوللودوروس في كتابه «سجلّ السفن»، على ما يلي: لقد كان حلفاء طروادا الآسيويين الذين ذكرهم هوميروس كلهم، من سكّان شبه الجزيرة التي يقع أضيق برازخها بين أقصى تجويف عند سينوبا، وإيسّ. ثمّ يضيف أبوللودوروس قائلاً: «إنّ الأضلاع الخارجية لهذه الشبه الجزيرة المثلّثة الشكل ليست مستوية. فإحدى الأضلاع تمتدّ من كيليكيا حتّى الخيليدونيين، وتمتدّ الأخرى من هنا حتّى مدخل البونتس الإيفكسيني، وتمتدّ الثالثة من هنا أيضاً حتّى سينوبا». وعلى هذا النحو يتّضح أن الزعم القائل، إن كلّ حلفاء طروادا الذين ذكرهم هوميروس كانوا «سكّان شبه الجزيرة فقط»، هو زعم باطل على أغلب الظنّ، لأنّ حلفاء الطرواديين، كما بيّنت سابقاً، لم يكونوا سكّان المناطق الواقعة على ذلك الجانب من هاليس فقط. فالمناطق القريبة من فارناكيا، حيث يقطن الغاليزونيون، تقع على هذا الجانب من هاليس[19]، وعلى ذلك الجانب من البرزخ، حتّى لو في أضيق مكان بين سينوبا وإيسّ، وتحديداً، ليس فقط على ذلك الجانب منه، بل أيضاً على ذلك الجانب من المضائق الحالية بين أميس وإيسّ. فأبوللودوروس يخطئ في تحديد البرزخ ومضائقه، لأنه يخلط بين المضائق الأولى الواقعة بين سينوبا وإيسّ، والمضائق الثانية الواقعة بين أميس وإيس. - لكنّ الأمر الأكثر سخافة، هو وصف أبوللودوروس لشبه الجزيرة بالمثلثة الشكل، وتحديده لأضلاعها الخارجية الثلاث. فمن يتحدّث عن «الأضلاع الخارجية»، يبدو على أغلب الظن أنه يستبعد الضلع التي تمتدّ على طول المضائق كأنها ضلع أيضاً، لكنّها ليست خارجية وليست على البحر. وعليه، لو كانت هذه المضائق ضيّقة إلى حدّ تكاد تتلاقى عنده «الأضلاع الخارجية» التي تنتهي عند سينوبا وإيسّ، لأمكن عندئذٍ، على الأرجح، أن نصف هذه الشبه الجزيرة بأنها مثلّثة الشكل. ولكن، بما أنّ المضائق التي يذكرها بين إيسّ وسينوبا، يقع واحدها على مسافة 3000 مرحلة عن الآخر، فإن وصف هذا الشكل ذا الأضلاع الأربع بأنه مثلّث، هو الجهل بعينه، هو الجهل الكامل بالكوروغرافيا. ولكنّ أبوللودوروس نشر بحثاً في

الكوروغرافيا كتبه على وزن الكوميديا[18]، وأعطاه عنواناً هو «وصف الأرض». ويبقى الجهل حاضراً أيضاً في حال إذا ما اختزل طول شبه الجزيرة إلى أقصر مسافة، أي إلى نصف المسافة، وتحديداً إلى 1500 مرحلة، وهذا ما يأخذ به كبار مزوّري الحقائق (ومنهم أرتيميدور)، ولكنّ هذا أيضاً لا يقلّص ضلع المضائق إلى الحدّ الذي يجعل شبه الجزيرة مثلّثة الشكل. ويخطئ أرتيميدور في تحديد الأضلاع الخارجية عندما يتحدّث عن «الضلع التي تمتدّ من إيسّ إلى الجزر الخيليدونية»؛ إذ يبقى الساحل الليكي كله، الذي يمتدّ على خطّ مباشر من الضلع التي ذكرها هو، كما يبقى أيضاً الساحل الواقع قبالة رودوس وصولاً إلى فيسك. ومن هنا ينعطف البرّ ويبدأ بتشكيل الضلع الثانية، أو الضلع الغربية وصولاً إلى البروبونتيدا وبزنطا.

23- وقد أكّد إيثور أن في هذه الشبه الجزيرة كانت تعيش 16 قبيلة، ثلاث منها هللينية، وما تبقى بربرية، باستثناء القبائل المختلطة؛ فعلى البحر يقطن الكيليكيون، والبامفيليون، والليكيون، والبيثينيون، والبافلاغونيون، والماريانديون، والطروادييون، والكاريون؛ ويعيش في داخل البلاد البيسيديون، والميسيون، والخاليبيون، والفريجيون، والميليون. وفي معرض مناقشته لهذه المعطيات يلاحظ أبوللودوروس، أن قبيلة الغلاطيين، أي القبيلة السابعة عشرة، أصغر سناً من زمن إيثور، وإن القبائل الهللينية المذكورة بين هذه القبائل لم تكن قد سكنت هنا بعد، في زمن حرب طروادا، أمّا القبائل البربرية فقد عاشت مع الزمن عملية تخالط عميقة. وفي «سجلّ» القبائل يذكر هوميروس قبائل الطرواديين، والقبائل التي تدعى الآن، قبائل البافلاغونيين، والميسيين، وشعوباً أخرى غير معروفة، كالغاليزونيين والكافكونيين على سبيل المثال. وعلاوة على الوارد ذكرهم في «السجلّ»، يذكر أيضاً الكيتيون، والسوليميون، والكيليكيون الذين من سهل طيبة، والليليغيس. أمّا البامفيليون، والبيثينيون، والماريانديون، والبيسيديون، والخاليبيون، والميليون، والقبدوقيون، فإنّ الشّاعر لا يأتي على ذكرهم البتّة، لأنّ بعضهم لم يكن قد سكن في هذه المناطق بعد، وبعضهم الآخر لا يزال ضمن شعوب أخرى، كالهيدريين، والتيرميليين مثلاً، الذين كانوا خليطاً مع الكاريين، والدوليونيين والبريكيين الذين كانوا خليطاً مع الفريجيين.

24- بيد أنه من الواضح أن أبوللودوروس لم يفقه بما يكفي معطيات إيثور، كما اختلطت عليه كلمات هوميروس فحرّفها. فقد كان عليه بادئ ذي بدءٍ أن يسأل

إيثور: لماذا يوضّع الحاليبيين داخل شبه الجزيرة، بينما هم يسكنون بعيداً نحو الشرق من سينوبا وأميس؟ أمّا الذين يأخذون الخطّ الممتدّ من إيسّ إلى البونتس الإيفكسيني على أنه برزخ هذه الشبه الجزيرة، فهم يعدّون هذا الخطّ بمثابة دائرة الطول التي تمتدّ بحسب بعضهم، إلى سينوبا، وبحسب بعضهم الآخر، إلى أميس. ومع ذلك فإن أحداً لا يعتقد أن دائرة الطول هذه تصل إلى منطقة الحاليبيين، لأنها متقوّسة تماماً. والحقيقة أنّ دائرة الطول التي تعبر بلاد الحاليبيين لا يمكن مدّها إلاّ عبر أرمينيا الصغرى والفرات، تاركين على هذا الجانب منها كلّ قبدوقيا، وكومّاجين، وجبل أمانوس، وخليج إيسّ. وإذا ما سلّمنا بأن هذا البرزخ يتاخم هذا الخطّ المتقوّس، فإن أكثر هذه المناطق، خاصة قبدوقيا، تبقى على هذا الجانب، ومثلها أيضاً ما يدعى الآن البونتس بالمغزى الخاص للكلمة، والذي يعدّ جزءاً من قبدوقيا قرب البونتس الإيفكسيني. وإذا كان من الضروري أن تعدّ بلاد الحاليبيين جزءاً من شبه الجزيرة، فإنه يحق لنا أكثر عندئذٍ أن نلحق بها أيضاً كاتاونيا، والقبدوقيتين، وكذلك ليكاونيا، وقد أغفل إيثور هذا كلّه. فلماذا إذن وضّع إيثور الحاليبيين الذين دعاهم هوميروس غاليزونيين، بين شعوب الأجزاء الداخلية من البلاد، كما بيّنت سابقاً؟[19] لقد كان من الأفضل أن يوزّعوا على فريقين يوضّع أحدهما على البحر، والآخر في داخل البلاد، وهذا كان يجب فعله تجاه قبدوقيا وكيليكيا. بيد أنّ إيثور لم يات على ذكر قبدوقيا البتّة، إنما تحدّث عن كيليكيّ الساحل فقط. أمّا الشعوب التي تخضع لسلطة أنتيباتر ديربيت: الهوموناديون، وبعض الشعوب الأخرى التي تجاور البيسيديين:

... ولا تعرف البحر

ولم تتذوّق طعاماً يخالطه الملح.

(*الأوذيسا* XVIII، 122)

فأين يوضّع هؤلاء إذن؟ وهو لم يذكر الليديين، ولا الميونيين؛ وهل هؤلاء شعبان أم شعب واحد، هل يعيشان مستقلّيْن أم يشكلان جزأين من قبيلة أخرى؟ فلا يجوز إخفاء مثل هذا الشعب ذي الشأن؟ وإذا كان إيثور لم يقل عنه كلمة واحدة، أفلا يعني هذا بوضوح أنه أغفل شيئاً مهماً جدّاً؟

25- والآن، ماذا تعني هذه الشعوب «الخليط»؟ إضافة إلى الأماكن التي ذكرتها سابقاً، فإني لا أستطيع القول، ما إذا كان قد ذكر الأماكن الأخرى التي نسبها للشعوب «الخليط»، أم أغفلها؛ وعلى النحو نفسه لا نستطيع أن ندعو بعضاً من

تلك الشعوب التي أغفلها أو ذكرها، شعوباً «خليطة». وواقع الحال، حتّى لو كان هؤلاء «خليطاً»، فإن الأرجحية بهذا الاتجاه أو ذاك، كانت ستجعل منهم هللينيين أو برابرة. فانا لا أعرف قبيلة «خليطاً» من نوع آخر.

26- ولكن كيف استطاعت ثلاث قبائل هللينية أن تعيش في شبه الجزيرة؟ إذا كان الأمر يتعلّق فقط بكون الإيونيين والأثينيين قد شكلوا في الزمن القديم شعباً واحداً، فإنه ينبغي أن نقرّ أيضاً بأن الدوريين والإيوليين قد شكلوا بدورهم قبيلة واحدة، وسيكون عدد القبائل عندئذٍ قبيلتين. أمّا إذا أخذنا تقسيمهم بما يتوافق وعاداتهم في الأزمنة المتأخرة، ولهجاتهم، فإن عدد القبائل واللهجات سيكون أربع قبائل وأربع لهجات. ولكنّ شبه الجزيرة ليست مسكونة بالإيونيين وحدهم (بحسب تقسيم إيثور)، بل يسكنها الأثينيون أيضاً، كما ذكرت لدى تعدادي للشعوب القائمة بذاتها[20]. وفي مثل هذه المسائل كلّها يمكن أن يؤخذ رأي إيثور بعين الحسبان، لكنّ أبوللودوروس لم يلق لهذا بالاً البتّة؛ بل على الضدّ من هذا، يضيف إلى القبائل 16 قبيلة أخرى، هي قبيلة الغلاطيين، ويسجلّ في أثناء ذلك ملاحظة مفيدة، لكنّها ليست ضرورية أبداً للحكم على ما يفصح عنه إيثور أو يصمت عنه. فأبوللودوروس نفسه يعرض سبب هذا، وهو أن هذا كلّه وقع بعد زمن إيثور.

27- ومع انتقاله إلى هوميروس يطرح أبوللودوروس فكرة صحيحة تماماً مفادها انه منذ زمن حرب طروادا حتّى الوقت الراهن، وبفعل مختلف التغيرات، وقع تخالط ذو شأن طال القبائل البربرية: بعض القبائل انضمّ إلى أخرى، وبعضها الآخر اندثر، وبعضها الثالث تشتت، والرابع اتحد في قبيلة واحدة. لكنّ أبوللودوروس يخطئ إذ يورد سبباً مزدوجاً يقف وراء عدم ذكر الشّاعر لبعض هذه القبائل: لأنذ هذه القبائل لم تكن تعيش عندئذٍ في هذه البلاد أو أنها كانت ضمن قبيلة أخرى؛ فالشّاعر، على سبيل المثال، لا يذكر قبدوقيا، وكاتاونيا، وكذلك ليكاونيا، ولكن ليس لأيّ سبب من هذه الأسباب؛ وفي أقلّ تقدير ليس لدينا مثل هذه المعطيات عن هذه البلدان. أضف إلى هذا أنه من المضحك البحث عن الأسباب التي دعت هوميروس إلى إغفال القبدوقيين والليكاونيين، والعثور على مبرر لهذا الإغفال؛ ولكنّ أبوللودوروس نفسه لا يتساءل لماذا يفعل إيثور الأمر عينه، ويسوق في غضون ذلك رأي إيثور بغرض دراسته وبحثه. ومن المضحك أيضاً أن يعظنا أحد متسائلاً، لماذا يذكر هوميروس الميونيين بدلاً من الليديين، ولا يلاحظ في الوقت نفسه أن إيثور لا يذكر الليديين ولا الميونيين.

28- وإذ يقول بعد ذلك إنّ هـوميروس يـأتي علـى ذكـر بعـض القبائـل المجهولـة، يصـــيب أبوللـــودوروس إذ يـــذكر الكـــافكونيين، والســـوليميين، والكيتـــيين، والليليغـيس، والكيليكـيين وسـهل طيبـة؛ أمّـا فيمـا يخـصّ الغـاليزونيين، فهـو نفسـه يختلقهم أو علـى أغلـب تقـدير اختلقهم أولئـك الـذين لا يعرفـون مـن هـم الغـاليزونيون، فغيّـروا اسمهـم إلى نمـط مختلـف[21] واختلقـوا «مـنجم الفضّـة»[22] وكـثيراً مـن المنـاجم الأخرى التي كانت قد اختفت تماماً. وبسـبب رغبـتهم الجامحـة في تكـوين رأي خـاص بهـم، جمـع هـؤلاء الروايـات الـتي كـان قـد أخـذها ديمـيتري السـكيبسيسـي عـن كاالليسـفين وبعـض المـؤلّفين الآخـرين الـذين لم يتحـرّروا مـن التصـوّرات الباطلـة الـتي شاعت عن الغـاليزونيين؛ ومنهـا علـى سـبيل المثـال، الروايـة الـتي تقـول، إن مصـدر ثـراء تانتالوس والبيلوبيدس، هـو مناجم في فريجيا وسيبيلوس؛ ومصـدر ثـروات قدموس مناجم في تراقيا وبانغييوس؛ ومصدر ثراء بريام الترسبات الذهبيـة في اسـتيرا قـرب أبيـدوس (لا تـزال بقاياهـا موجـودة حتّـى يومنـا هـذا؛ وتتشـكّل أكداسـها الكـبيرة ومناجمهـا قـرائن على عمليات التعدين التي كانت تجـري هنـا)؛ ومصـدر ثـراء ميـداس منـاجم قـرب جبـل بيرموس؛ ومصـدر ثـروات هيجيس، وأليات، وكـريز منـاجم في ليديا وفي منطقـة تقـع بـين أتارنييوس وبرغاموس، حيث تقع مدينة مهجورة على أراضيها مناجم ناضبة.

29- كمـا يمـكننا أن نتهم أبوللودوروس أيضاً في أنه (في الوقت الذي يدفـع فيـه المؤلّفـون المعاصـرون بكـثير ممـا هـو جديـد ضـدّ مقـولات هـوميروس) كـان يـدفع عـادة باعتراضـات أكـثر رصـانة ضـدّ البـدع الجديـدة، أمّـا في هـذه المرّة فـلا يعيرهـا سـوى اهتمـام ضئيل، بل ويجمـع مقولات متباينـة في كلّ واحد. فكسـانثوس الليـدي علـى سـبيل المثـال يقـول، إن الفريجيين جاؤوا من أوروبا بعد حرب طروادا، ومن الجهـة اليسـرى للبـونتس، وإن ســـكاماندروس قـــادهم مـــن منطقـــة البيريكينتـــيين ومـــن أســـكانيا. فيضـــيف أبوللودوروس إلى هذا، إن هوميروس يأتي على ذكر هذه الأسكانيا التي يتحدّث عنها كسانثوس:

فوركيس وأسكانيوس المقدام، قاد جحافل
الفريجيين من أسكانيا.

(*الإلياذا* II، 862)

ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فإن انتقالهم ينبغي أن يكون قد حصل

بعد حرب طروادا، وما يذكر في هذا السياق، أن القوات المساندة التي يذكرها هوميروس كانت قد جاءت أثناء حرب طروادا من منطقة البيريكينتيين ومن أسكانيا. ولكن من كان أولئك الفريجيون عندما

اصطفّت قوّاتهم على طول ضفاف سانغاروس،

(*الإلياذا* III، 187)

أمّا بريام فيقول عن نفسه:

وهناك كنت أنا أيضاً، حليفاً لهم عدّوني.

(*الإلياذا* II، 188)

فكيف استدعى بريام الفريجيين من منطقة البيريكينتيين ولم يكن بينه وبينهم أي علاقات تحالف، وتجاوز جيرانه الذين كان قد مدّ يد العون لهم من قبل؟ وبعد مثل هذه المحاكمة الذهنية عن الفريجيين، يضيف أبوللودوروس إخباراً عن الميسيسيين غير متوافق مع السياق. فعلى حدّ قوله أن أسكانيا اسم تدعى به قرية في ميسيا تقع قرب بحيرة تحمل الاسم عينه، ينبع منها نهر أسكانيوس الذي يذكره يوثوريون:

في ميسيا، هناك حيث تتدفّق مياه أسكانيوس...

وعنه يقول الإسكندر الإيثولي:

أولئك الذين تقوم مساكنهم عند شغاب أسكانيوس الرقراقة.

وعلى شواطئ البحيرة الأسكانية، هناك حيث عاش

دوليون، ابن ميليا الماجد، ذلك الذي أنجبته لسيلينوس.

وعلى حدّ قوله، إن المنطقة الواقعة قرب كيزيك على الطريق إلى ميليتوبوليس، تدعى دوليونيدا وميسيا. وإذا كان الأمر على هذا النحو فعلاً، وتؤكّده الأماكن التي يرونك إياها حتّى اليوم، إضافة إلى شهادات الشعراء، فما الذي أعاق هوميروس إذن عن ذكر هذه الأسكانيا، وليس تلك التي يتحدّث عنها كسانثوس؟ ولكني كنت قد تحدّثت عن هذا من قبل في روايتي عن الميسيسيين والفريجيين[23]. ولذلك يكفي ما قلناه في هذه المادّة حتّى الآن.

الفصل السادس

1- بقـي لنـا الآن أن نصـف جزيـرة قـبرص الـتي تقـع إلى الجنـوب مـن هـذه الشـبه الجزيـرة. وكمـا كنـت قـد قلـت، إن البحـر الـذي تحـيط بـه مصـر، وفينيقيـا، وسـوريا وبـاقي السـاحل حتّـى رودوس، يبـدو كـأنـّه يتـألّف مـن البحـرين المصـري والبـامفيلي، والبحـر الـذي عنـد خلـيج إيّـس. وفي هـذا البحـر الأخـير تقـع قـبرص؛ وتتـاخم الأجـزاء الشـمالية مـن هـذه الجزيـرة، وهـي الأقـرب إلى الـبرّ، تتـاخم كيليكيـا التراخيـة، أمّـا أجزاؤهـا الشـرقية، فهـي تشـاطئ ميـاه خلـيج إيـس، وتشـاطئ أجزاؤهـا الغربيـة البحـر البـامفيلي، والجنوبيـة البحـر المصـري. ويتـداخل هـذا الأخـير مـن جهـة الغـرب مـع البحـر الليبي والبحـر الكـارباثي، ومن جهة الجنـوب والشـرق يتـاخم مصـر والسـاحل الـذي يلـي مباشـرة حتّـى سـلوقيا وإيّس؛ ويتـاخم مـن جهـة الشـمال قـبرص والبحـر البـامفيلي. ويتزنّـر البحـر البامفيلي من جهة الشمال بأطراف كيليكيا التراخيـة، وبامفيليـا وليكيـا حتّـى منطقـة رودوس، ومـن الغـرب بجزيـرة الرودوسـيين، ومـن الشـرق بجـزء قـبرص القريـب مـن بافوس وأكامانث، ويتداخل من الجنوب مع البحـر المصـري.

2- يشـغل محـيط قـبرص 3420 مرحلـة، بمـا في ذلـك ثنيـات الخلجـان. وطـول الجزيـرة من كليدا حتّـى أكامانث، إذا اتّجهنا برّاً من الشرق إلى الغـرب 1400 مرحلـة. وكليدا جزيرتان واقعتان أمام قبرص، قبالة الشطر الشـرقي من الجزيـرة، علـى مسـافة 700 مرحلـة مـن بيرامـوس. أمّـا أكامانـث فهـي رأس بحريـة لهـا قمتّـان شـبه دائريتـان، وعليها غابة كبيرة. وتقع هذه الرأس عند الأطراف الغربية للجزيرة، وتمتدّ شمالاً؛ وهـي أقـرب مـا تكـون إلى سـيلينونت في كيليكيـا التراخيـة، إذ تبلـغ المسـافة بينهمـا 1000 مرحلـة، بينمـا يشـكّل المعبر إلى سـيدا في بامفيليـا 1600 مرحلـة، وحتـى الخيليـدونيين 1900 مرحلة. وتتخذ الجزيرة شكلاً مستطيلاً؛ وهـي تشـكل في بعض أماكنهـا بـرازخ: على الأضلاع التي تحـدّد عرضها. وتنقسـم الجزيـرة إلى أجـزاء منفصـلة سـأعطي لكـلّ منها وصفاً موجزاً، بدءاً من أقرب نقطة فيها إلى البرّ.

3- لقـد قلـت في مكـان سـابق[1]، إنـه ثمّـة قبالـة أنيموريـوس- رأس بحريـة في كيليكيـا التراخيـة - رأس بحرية للقبارصة، وهـي تحديداً رأس كـرميوس الواقعـة علـى مسافة 350 مرحلة. ومن هنا تتّجه الطريق البحرية إلى كليدا (على يمينها جزيـرة وعلـى يسارها بـرّ) مباشـرة نحـو الشـمال الشـرقي لتشـكّل 700 مرحلـة. وفي هـذا الفاصـل تقـع

مدينة لاباث وفيها محطة شراعية وتراسانات لإصلاح السفن وبنائها؛ وقد تأسّست هذه المدينة على أيدي اللاكونيين وبراكساندرس؛ وتقع قبالتها ناجيدس. وتأتي بعد ذلك أفروديسوس حيث تضيق الجزيرة، لأنّ المعبر إلى سلامين يبلغ 70 مرحلة. يلي ذلك ساحل الآخيين، حيث نزل تيفكروس مؤسّس سلامين في قبرص لأوّل مرّة بعد أن حكم عليه والده تيلامون بالنفي، كما يروى. وتأتي بعد ذلك مدينة كارباسيا وميناؤها، وتقع هذه المدينة قبالة رأس سربيدون البحرية. ويمتدّ المعبر من كارباسيا عبر البرزخ إلى الجزر الكارباسية والبحر الجنوبي على 30 مرحلة. ثمّ تأتي بعد ذلك رأس بحرية وجبل تدعى قمّته أوليمبوس؛ ويقوم على هذه القمّة معبد لأفروديت الأكريسية يمنع على النساء دخوله، بل يمنع عليهن النظر إليه. وقبالة الرأس على مقربة تقع كليدا وبعض الجزر الأخرى. ثمّ تأتي الجزر الكارباسية، وبعدها سلامين، مسقط رأس أريستوس المؤرّخ. وبعد ذلك تقع مدينة أرسينويا وميناء. ثمّ ميناء أخرى تدعى ليفكولا. تليها رأس بيداليس البحرية التي تعلو فوقها هضبة صخرية شاهقة لها شكل المعيّن، مكرّسة لأفروديت؛ ومن كليدا إلى هذه الهضبة 680 مرحلة. ويمتدّ بعد ذلك معبر بحري يقود إلى كيتيس، امتداده الأعظم مُلتو وصخري. وفي كيتيس ميناء مغلقة. وهذه المدينة هي مسقط رأس زينون مؤسّس المدرسة الرواقية، وأبوللونيوس الطبيب. ومن هنا إلى بيريت 1500 مرحلة. وأبعد إلى الأمام تقع مدينة أماثونس، وفي الفاصل تقع مدينة تدعى باليبا وجبل الأوليمب الذي له شكل شبه دائري. وبعد ذلك تأتي رأس كوريادا البحرية التي لها مظهر شبه جزيرة، والمسافة من فرونا إلى هذه الرأس 700 مرحلة. ثمّ مدينة كوريوس ومحطتها الشراعية التي بناها الأرغيفيانيون. - ويمكننا أن نلاحظ هنا تهاون مؤلّف المرثاة التي مطلعها:

أيائل ثيبا المقدّسة التي شقّت طريقها عبر الأمواج الصاخبة،

وأسرعنا نحن لكي نتفادى السهام القاتلة؛

ومن غير المعروف ما إذا كان مؤلّفها هو جيديلوس أو شخص آخر؟ فهو يقول، إن الأيائل جاءت من سلسلة كوريكيا الجبلية وعامت من الشاطئ الكيليكي إلى الشاطئ الكورياذي، ثمّ يضيف:

معجزة عظيمة بالنسبة للناس: حملتنا زفيروس

على جناحيها إلى البعيد البعيد، من غير دروب،

عبر المجرى.

ولكن في حقيقة الأمر أنه يمكن الإبحار حول الجزيرة من كوريكيا حتّى الساحل الكوريادي، ولكن ليس مع زفيروس ومن غير أن تكون ثمّة جزيرة على يمينك أو على يسارك، لأنه ليس عبر البحر معابر بين هاتين النقطتين. وعلى أيّ حال فإن كوريوس هي بداية الطريق البحرية الغربية إلى رودوس؛ ثمّ نصل مباشرة إلى الرأس البحرية التي يرمون من فوقها الذين يدنّسون مذبح أبوللون. ثمّ تأتي تريتا، وبووسورا، وباليباثوس؛ وترتفع هذه الأخيرة قرابة 10 مراحل عن البحر، وفيها محطة شراعية وحرم قديم لأفروديت البافية. تلي ذلك رأس زيفيريا البحرية بمحطتها الشراعية، وأرسينويا أخرى مع محطتها الشراعية، وحرم وأرض مقدّسة. وغير بعيد عن البحر تقع هيروكيبيدا. ثمّ تأتي بافوس التي أسّسها آغابينور، وفيها ميناء وحرم مبنيّ بناء فخماً. وتقع المدينة على مسافة 60 مرحلة برّاً عن باليباثوس؛ وعلى هذه الطريق يجتمع الرجال والنساء من المدن الأخرى سنوياً في مواكب احتفالية تسير إلى باليباثوس؛ ويرى بعضهم أن المسافة من بافوس إلى الإسكندرية 3600 مرحلة. وبعد بافوس تأتي أكامانث. وبعدها نحو الشرق تأتي طريق بحرية تقود إلى مدينة أرسينويا وأرض مقدّسة لزيوس. وبعد ذلك تأتي مدينة سولا وميناؤها، ثمّ نهر وحرم لأفروديت وإيزيس. وقد أسّس المدينة الأثينيان فاليروس وأكامانثوس؛ ويدعى سكّان هذه المدينة سوليين. وينتمي إليها ستاسانور، أحد هيتيريس[2] الإسكندر الذي ارتقى إلى مرتبة قائد. وفوق سولا، في عمق البلاد تقع مدينة ليمينيا. ثمّ تأتي رأس كروميوس.

4- ما الذي يثير استغرابنا لدى الشعراء، خاصة الكتّاب الذين يولون الاهتمام الرئيس للأسلوب، إذا ما قارنّا بهم الأخبار التي ساقها داماستوس؟ فهو قاس طول الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، من هيروكيبيا، كما يقول، حتّى كليدا. كما أن رأي إيراتوسفين ليس صحيحاً بدوره. فهو إذ ينتقد داماستوس يزعم أن هيروبيبيا[3] لا تقع في الشمال، إنما في الجنوب؛ بيد أنها في واقع الأمر لا تقع في الجنوب، بل في الجهة الغربية من الجزيرة، هناك حيث تقع أيضاً بافوس، وأكامانث. هذا هو موقع قبرص الجغرافي.

5- وفيما يخصّ خصوبة أرضها، لا تقصّر قبرص عن أيّ جزيرة أخرى. هي غنية حقّاً بالنبيذ، وزيت الزيتون، ولديها ما يكفي حاجة الاستهلاك المحلّي من الأقماح. وفي الجزيرة مناجم نحاس غنية تقع عند تاماس يستخرجون منها الزاج الأزرق والزنجار الذي له منافع طبية. وبحسب إيراتوسفين أن سهول الجزيرة كانت تغطيها في الزمن

القديم غابات كثيفة إلى حدّ جعلها غير صالحة للعمل الزراعي؛ ويمكن القول، إن تعدين المناجم قدّم مساعدة ما في هذا الأمر، لأنّ السكّان كانوا يقطعون الأشجار لأفران صهر النحاس والفضّة؛ والتحقت بهذه العملية بعد ذلك عملية بناء الأساطيل، لأنّ الإبحار كان قد بات آمناً بعد أن ظهرت السفن الحربية. ولكنّ القبارصة عجزوا عن وضع حدّ للغابات، فاضطروا للسماح لمن يشاء أو يسطيع قطعها، وجعلوا من المساحات النظيفة أراضي معفاة من الضرائب.

6- في الأزمنة الماضية كان يحكم في كلّ مدينة من مدن القبارصة تيران، ولكن منذ أن صار ملوك سلالة البطالمة إلى سادة مصر، وقعت قبرص تحت حكمهم بمساعدة متواترة من الرومان. وبما أن آخر بطليموس ملك هناك وهو عمّ الملكة كليوباترا المعاصرة لنا كان رجلاً سيّئ الطباع، وناكر جميل من أحسن إليه، فقد أطاحوا به عن العرش، واستولى الرومان على الجزيرة التي تحوّلت إلى مقاطعة رومانية خاصة يحكمها قاض. وكان المتسبب الرئيس في عملية الإطاحة بالملك المصري، هو بوبليوس كلاوديوس بولخر. فقد وقع هذا الأخير في أيدي عصابات القراصنة (لأن الكيليكيين كانوا عندئذ في أوج جبروتهم) وحينما طلب هؤلاء منه فدية، أرسل إلى الملك يطلب منه أن يدفعها ليطلق سراحه. ولكنّ الملك أرسل فدية هزيلة جدّاً، ولذلك عفّ القراصنة عن تسلّمها فردّوها إلى الملك واطلقوا الأسير مجاناً. وبعد أن نجح في تجاوز محنته بسلام، أضمر كلاوديوس ضغينة وقرر أن يردّ الصفعة للطرفين؛ ولمّا انتخب منبراً شعبياً، باتت بين يديه قوة مكّنته من إرسال مارك كاتون لانتزاع قبرص من مالكها الملك المصري. بيد أن الملك انتحر؛ ولمّا وصل كاتون إلى الجزيرة استولى عليها وأمر أن تباع أملاك الملك ثمّ أرسل ثمنها إلى خزانة روما. ومنذ ذلك الوقت تحوّلت قبرص إلى ولاية يحكمها قاض. وبقيت على حالها هذه دائماً، ما عدا فترة قصيرة منحها فيها أنطونيو ملكية خاصة لكليوباترا وأختها أرسينويا. ولكن بعد سقوط أنطونيو، سقطت معه أوامره وتعليماته كلها.